تمهيد



الكتـــــاب : تنهيدة

المـــؤلــــف : يوسف الدموكي

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايـــر 2019

رقــم الإيــداع : 2018/23877

978-977-6541-95-5 : I.S.B.N

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



يوسف الدموكي



إهــــداء

إلى هؤلاء..

الذين سيتنهدون كثيرًا..

بين راحتَي هذا الكتاب.

إِلى الشموس المحترقة حولي، الواهبةِ لي ضوءَها؛ ليَظهر قمري في صحن السماء كاملًا.


أَمَّا بَعْد..

(١)

اليوم أراكِ للمرة الأولى، رغم أنكِ تبعدين عني خمس محافظاتٍ وعشرين مدينةً وألف ميلٍ، ونيل.. ينقطع ويتصل، وبساطٍ أخضر يظهر ويختفي، وقرصُ شمسٍ أحمر يذوب في حضن ليلٍ أسود، وأنا لم أصلْ إليك بعد.. لكنني رأيتك للمرة الأولى رغم أن الأقدار جمعت بيننا ثلاث مرات من قبل!

الرؤية التي أقصدها مختلفة تمامًا. ليست تلك التي تتصافح فيها العيون في اليوم ألف مرة؛ وإنما تلك التي تتعانق فيها القلوب في المرة الواحدةِ ألفَ يوم وليلة. إن الرؤية التي أقصدها هي تلك التي نرى من خلالها أحدَهم شفافًا، متجردًا من كل شيء.. عدا قلبه.

وأودُّ أن أتخلى عن كبريائي الذي يجعلني أتظاهر بالثبات؛ لأخبرك أنَّ داخلي لم يشهد طوال حياتِه انقلابًا أعتى من انقلابي رأساً على عقبٍ حين رأيتك؛ فهددَت أركانُكِ

استقرارَ جوارحي، وألهبَت خواطرُك برودَ جوانحي، وتشعل عيونُك لديَّ ثورةً عليكِ كلما مرَّ طيفُك، لكنها سرعان ما تهدأ وتنطفئ جذوتها استسلاماً لحكمِك، وانقيادًا لحكَمك، وامتثالا لحاكمك، مُعاهدًا إياكِ على الإيمان بالواقع، الذي يقول بأنني واقع.. في شِباكك؛ لأن نظري وقع -بلا قصدٍ- على شُباكك.

إنكِ الثورة والثورة المضادة، الثائرة والمنقلِبة والمنقلَب عليه. وما أنا إلا ميدانٌ يقبل بك حاكما أو محكومًا؛ فكنتِ لأرضي دولةً، ولدولتي حدودًا.

وإنني ما فكرتُ في الثورة عليك ساعةً إلا وخمدتْ ثورتي في لحظة؛ بشيءٍ في عينيكِ يقمعني، أو يقنعني؛ يحببني في أغلالك، ويرغبني في حصارك؛ فتخطرين لي بصوتك الحاني، تقولين: «احتللتُكَ احتلالَ مُحِبّةٍ يا يوسُف»؛ فأجيبك بعينين حالمتين، وقلبٍ مضطرب، وكفَّين تمتدان أمام عينيك: «لا عليكِ سيّدتي. إنني وطنٌ مختَلٌّ.. يحب مُحتَلَّه».

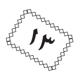


(٢)

عرفتُ فيكِ أنَّ نواميسَ الكون لا سُلطان لها على ميدان الروح، وأَن الكون كله منحسر بين جنبيكِ وحدك، وما نراه في الآفاق مجرد انعكاسٍ لما في نفسك؛ فلا أقمار إلا دمعاتك فرَحا، ولا براكين إلا دمعاتكِ ترَحا، ولا هواء إلا أنفاسك حين تعلن بين عينيَّ حلولَ الربيع، حتى وإن كانت الأرض مِن تحتنا تشتعل نارًا، أو السماء من فوقنا تفيض أنهارا.

وأراني هناك، عند مركز الكرة، غارقًا في سواد عينيك، يغشاني موج من فوقه موج من فوقه سحاب، وأقترب أكثر؛ فأدرك أن بين يديك شاطئًا، وبين عينيك جزيرةً، وبينهما أنا، هاربًا من الموت الطبيعي إلى الموتِ فيكِ؛ لأحيا.

وعرفتُ فيكِ.. أنكِ كلما غبتِ عن عيني؛ كنتِ في روحي أكثر حضورًا، وكلما حضرتِ في عيني؛ كنتِ عن الدنيا من دوني أكثر غيابا.



عرفتُ أنكِ لا يضيرُك زحامُ الحاضرين ما دمتُ عنهم غائبًا، ولا يعنيكِ غيابُ العالَمين ما دمتُ بين يديكِ حاضرًا.

عرفتُ بكِ أن العبرة ليست بالزحام ولا بعدد الحاضرين؛ وإنما بركنٍ دافئٍ مُنطَوٍ في ثنايا روحِك ألجأ إليهِ كلما أحسستُ منَ العالَم فزعاً.

عرفتُ أنَّ الصمت في حضرتك أَوْلى من الصوت، والسكن في عينيك أولى من الفوْت، وأن الحياة معك مهرُها الموت.. فيك.

عرفتُ أن كتفك الحنون -التي أراها في كل شباك أستند إليه بكل حافلة وفي حائط غرفتي الذي ألتصق به كلّ ليلة- تغنيني عن ملء الكونِ دونَها أحضانًا.

عرفتُ أن الحياة بطولها ليست في جواركِ إلا ثوانٍ، وما البعد عنك إلا هوان، وما صوتك إلا أذان، وما صمتك إلا بيان، ولا أكون إلا إذا كنتِ، ولستُ أنا أنا.. إلا بحضرتكِ أنتِ.

إنني عرفتُ أنني.. منكِ.. وإليكِ.. وفيكِ.. وبكِ.. فعرفتُني.



(٣)

المرَّة الأولى لرؤية عينيك..

والمرة الأولى لسماع صوتِك..

والمرة الأولى لاستنشاق عبيرِك الزاكي..

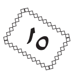
والمرة الأولى لانتفاضةِ قلبي في حرَم قلبِك..

أعترف أنني قبلهنَّ.. لم أكن أمتلك عينًا ولا أذنًا ولا أنفًا ولا قلبًا..

وإنما كانوا حواسا بلا إحساس؛ إلى أن جئتِ إليهم إحساسًا بلا حواس..

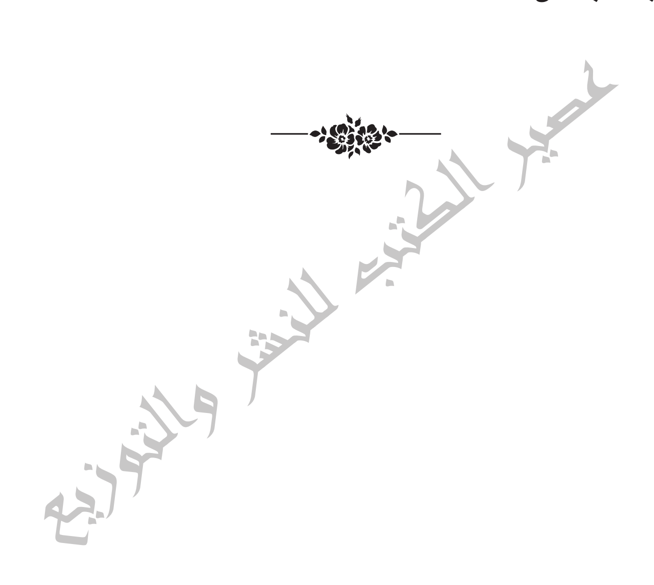
فدببتِ في الجسد الميت روحك، وأحييتِ أرضًا صرتِ تربتها وماءها.

وكنتُ أسأل نفسي عما يميزك عنهنَّ؛ فلا أجد ردًّا، ولا أعثر على جواب، إلى أن أدركتُ -بعد فترة قصيرة- أنَّ المقارنة بينكِ وبين غيرك، أو السؤال عن الفارق بينكُنَّ، أو



أن أضمَّك معهنَّ في نونِ نسوةٍ واحدة.. مِن باب الحماقة؛ كمَن يسأل عن الزمان بـ «كيفَ»، وعن المكان بـ «متى»!

الآن أدركتُ أن السؤال والإجابة يتساويان في حضرتِك وحدَك؛ حيث لا يُقارَن الكل بالأجزاء، ولا يُسأل الجميلُ عن أسباب الجمال.

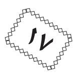


(٤)

أمَّا أنت؛ فَصَمْتُكِ احتواء، وصوتك مقامٌ متفرد بين الرهبة والرجاء. تشعرين بما خفي في قاع روحي؛ حتى إن طفى على سطح وجهي عكس ذلك. تحسين بتلك التيارات الدوامة في الأعماق؛ حتى وإن بدوتُ بالأعلى شخصًا سالما من كل اضطراب.

تتلقفين ذاك المسكين الذي آوى إلى الغرق فيكِ لينجو، هاربا من ضيق اليابسة إلى سعة محيطك؛ تمامًا كالقمر في ليلة منتصف الشهر، حين يكون في أحلى صوره وأبهى حلله، غارقًا بين أمواجك، معلنا الفرار منكِ إليك، بريئًا يسلم نفسه إلى عدالتك، منفيًّا يطلب اللجوء إلى أراضيك، بعيدًا عن عيون الجميع، قريبًا من عينيك وحدك.

تأذنين للمد والجزر بالرحيل مبكرًا الليلة، كمن يسمح لعيالِه ليلةَ الجمعة باللعب في الشارع إلى منتصف الليل،



وترسلين أمواجك تتعجل قدومي إلى ميدانك، تترقب امتزاج طيفي بوجدانك، واختفاء خوفي بأمانِك.

آتيكِ.. ليغتسل فيكِ قمري من همومه المحفورة في وجهه كالخنادق؛ فتذوب دفعةً واحدة بين الأمواج. آخذ نفسًا عميقًا منك ثم أبثه فيكِ، فتَبيَضِّين بِضَيّي وتتوضئين ببياضي، وتغتسلين في حضوري مِن عتمة قاعك، وظلمة أوجاعك التي تسربت إليك من حاويات آلام، كانت تحملها عبَّاراتٌ ثقيلة الخطى، تشقُّ صدركِ تائهةً منً شواطئ النور إلى غياهب الظلام.

وأمَّا أنا؛ فإنني لك يا بحيرتي بدرٌ، وإنكِ لبدري سريرٌ يغرق فيه لينام؛ كاشفًا لكِ صدره المثخَن بالجراح، وشاكيًا لكِ بصمته وحشة الظلام، راجيًا منكِ ضمَّه كل مساء، وتَسكينه كل ليلة، واعدًا إياكِ أن ينير سَطحُه عمقَك، وأن يشفيَ نورُه عقمَك، وأنَّ العَقد الذي بينكما سيسكن به اضطراب المحيطِ، ويُطوى به خسوف القمر.



(٥)

كَعابر سبيلٍ يمرُّ بديارِ المدينة، كعادته كلَّ صباح، لا يُلقي أحدٌ له بالًا، عدا واحدة.. ترى في عبورِه المتواضع موكبَ ملك، وتسمعُ في سكوته الشّارد محفلَ طرب، وتشمُّ في طيفه الخاطف أجمل عطرٍ ثابت في الكونِ كله. وبالرغم من مروره بديار المدينة جميعها؛ فلا أحد يرى فيه ما تراهُ هي؛ لا يرون مع قدومه قوسَ قزح، ولا مع غيابه حمرة الأصيل.

الجمالُ سيدتي..

كان في هوى الفتاة..

لا في هُوية العابر.

فإذا سألكِ أحدهم: أين أجد الجمال؟

فأجيبيه: «في عيون مَن يرَونه».

لأن أصل الجمال فيمن يَرى؛ لا فيمن يُرى.



(٦)

فِي الحقيقة؛ ليس الجمالُ فِي عبير الوردِ المطلِّ على شُرفتي، ولا فِي ضوء القمر الذي يرسم لوحةً مبهرة التوزيع بين الانعكاسات والخيالات، ولا فِي آخر رشفةِ من فنجان قهوةٍ عربيةٍ يزداد مرارةً، ويحلو كلما قلَّ منسوب المتبقي فيه.

إنني أراك فيهم؛ فأراهم أجمل من حقيقتهم المجردة؛ إذ الجمالُ جمالٌ.. لأنني كلما نظرت إليه رأيتُ فيه وجهك.

فِي الحقيقة؛ إن الجمال كلَّه يكمن فِي التفاصيل التي لا يراها غيرُك؛ بمعنى أنَّ قميصي الجديد أعجبَ صاحبي بالبيتِ وصديقي بالجامعة وزميلتي بالعمل، لكنَّ أحدًا غيركِ لم ينتبه أنَّ هناك بقعةً صغيرةً كونتها نقطةُ حبرٍ على طرفِ الكُم، سقطَت فوقه، عندما وضعتُه غيرَ منتبهٍ فوق مكتبي وأنا أسجل فِي مفكرتنا الصغيرةِ- التاريخَ الذي اشتريناهُ فيه معًا، حين رافقَني وجدانك الذي كان معي رغم وجودك الذي كان معهم.

نقطة الحبر.. سقَطتْ عليه قبل أربعةِ أشهرٍ وعشرةِ أيام عندما اشتريناه في الساعة الأخيرةِ قبلَ إغلاقٍ المتجرِ الذيً كنتِ لا تجيدين نطقَ اسمه حتى تعلمنا نطقَه معًا.

في الحقيقةِ..

أعجبهم القميص، وأعجبتني نقطة الحبر!



(٧)

ويَحدُث أن أقف أمام ملابس تعجبني في أثناء التسوق، أتخيلك حينها بجواري تختارين أيهم يليق بي أكثر، وأشعر باختيارك، فأنزل على رغبتك. ثم أنصرف إلى مطعمٍ وأطلب ما تحبين، ثم أقسم ما طلبتُ إلى جزأيّن؛ لكلٍ منا نصفه، أفصل بين أكلِهما بدقيقةٍ، أتحوَّل فيها إليك. أفرغ من الطعام وأمسح فمي مرتين، ثم أنصرفُ، ليلفت نظري في واجهة متجرٍ ما، فستانٌ أثق أنه يعجبكِ، فأحفظ تفاصيلَه، وأرى يديَّ كأنهما حملتاه، وعينيك كأنهما رأتاه.

في الحقيقة..

أسيرُ بجسمٍ واحدٍ، وأحملُ معي روحيّن!



(٨)

بيتُ شعرٍ، أو سطر نثرٍ، أو لحنُ أغنيةٍ، أو مقطوعة موسيقى عمرُها ممتدٌّ ما دامَ عمرُك، أو وردةٌ حمراء.. وجدتُّها صدفةً على ناصية طريقٍ ممتلئةٍ بالزهورِ، ربما كانت أصغرهن حجمًا وأقصرهن طولًا وأقلهن أوراقًا، لكن جمالها مختَصَرٌ في وجهها الذي يشبه وجهكِ تمامًا، حين قابلتُك أول مرة.

كل الزهورِ من نفسِ جنسكِ كانت متراصَّةً في نسق واحد، وكنتِ وحدكِ متمردةً عليهم؛ يرويهم الماءُ، ووحدَك ترتوينَ بالحب وتنمين بالنظرات، بناؤهم الضوئي الشمس، وبناؤك الضوئي القمر!

في الحقيقة.. قلَّما نحفظ الجمال؛ فإنه يُنسى بعضُه بعضًا، ولكن ثمة جمالٌ يَعلق بالذهنِ من أول إشارةٍ ترسلها العين؛ وهو الجمال الكامن في التوحد والتفرد، إذ لا يجمعه

مع الآخرين صفةٌ، ولا ينتسب ضمنهم إلى واو الجماعة؛ إنه جمالك.

على ناصية الطريقِ كنتِ مزهرةً وحدك؛ ولذا وَحدي، أحببتُك.



(٩)

مَهما بلغ جمالي أقصاه في عينيك؛ فإنني في درجةٍ منه، تزيد وتنقص في عيون الناس، لكنها تبلغ ذروتها عندكِ وحدك؛ كأن قَرَنيـَّتيك مقياس شدته ومؤشر بُوصَلته.

إلا أنني -يا سيدتيِ- مجرد موصوف، وأنتِ الصفة ومصدرها؛ فإن الجميلَ لا يتصدق على أَصله، وإن عابرًا بأبواب مدينة، عيَّنه أميرُها خادمًا بها، ليس له أن يتفضل على صاحبٍ الفضل عليه؛ فلا يستوي السائل والعائل، ولا المَسقيُّ مع ساقِيه.

سيدتي، نقطةٌ أخرى..

لا تسأليني عن مدى جمالك في لونٍ ما؛ وإنما سليني عن مدى جمال ذلك اللون بكِ؛ فَإنَّ الألوان بحد ذاتها ليست أصليةً إلى أن تكتسب أصلَها إذا لمسَتْها أناملُك في كتاب، أو استند إليها ظهرك في حائط، أو ارتديتِها؛ حينها تصبح الألوان ألوانًا؛ أصلها موجود، ووحدَك مَن وهبتِها أثرها ومصدرها. وإنني كذلك، مثل الألوان؛ لم أشعر بجمالي إلا

حين حضرتِ؛ كطبيعة الأشياء في الظلام؛ لا تُعرف إلا حين يسقط عليهاَ الضوء.

وإنّ كان الضوء هو أصل رؤيتنا للأشياء؛ فالحبُّ هو أصلُ معرفتي بك.

إنني لم أعرفكِ بالحب؛ وإنما عرفتُ الحبَّ بك.



(١٠)

ليسَ الجمالُ بما يلوح في الأفق؛ وإنما بأن يكون مختبئًا خلف الأقدار، متخفيا في ثياب الغيوب؛ بغموض ملامحه وإبهام تفاصيله.

ليس الجمال في دوران البدر ولا في بياضه؛ وإنما في انتظاره شهرا ووداعه شهرا لينتصف الشهرين بكمالِه. وليس الجمال في انطلاق الجسم وتمدد الضلوع؛ وإنما في تخيل الحرية ساعة الأسر وانتظار حلاوتها في مرارة الكسر؛ فإننا لا نشعر بالعيد إلا لأنه سُبق بمشقة الصيام، ولا نبكي من جمال الفرح إلا لأننا بكينا قبله من قسوة الجرح.

إن الجمالَ هو ما كان العقلُ عاجزاً عن فهمه، وأنتَ إما أن تحاول فهمَه فيضيع سره، وإما أن تكتفي بالإيمان به فلا مفسر له.

أشرحُ لك.. إن الجمال بيننا مثلًا ليس في أن تكوني قويةً مثلي، ولا أنَ أكون ضعيفا مثلك؛ وإنما في أن أكون لك ملجأً وعونًا، وأن تكوني لي موطنًا وسكنا؛ أن أكون ضعيفًا حين



يشتد أزرك، قويا حين تخور عزيمتك، لَينًا في جوار غضبك، شديدًا يحتاج إلى ساعات لينك.

إن الجمال بحق.. أن تكوني من غيري صِفرا، وأن أكون من غيركِ صفراً، لكنَّ صفرينا معًا.. يتحوَلان إلى «ما لا نهاية».



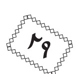
(١١)

كجُنديٍّ.. أثخنته الجراح، ساقطًا في أرض المعركةِ، تتخلله الرصاصات وتدهسه الأقدام، لكنه مع أول نسمةَ هواءٍ لا يعلم من أين أتت- ينسى كل ما به من ألم، وينسى كل ما ألم به؛ فيذوب هواه في أحضان الهواء، وينزف بدلًا من دماء الحرب دموعَ الجبر.

مساكين؛ نتجرع البعدَ، ونتقاسم المسافاتِ، ونسهر الليلَ والويل معًا، ثم يؤمِن أحدُنا بصاحبِه حين يقول له: «أتيتَ، وأتى كلُّ جميلٍ معك».

وفي الحقيقة، إن الجميل الذي أتى مع حبيبك هو أنت؛ «أنت» الذي كان يرى ولا يُبصر، وإذا أبصرَ لا يدرك، وإذا أدرك لا يؤمن، وإذا آمن لا يثبت، وإذا ثبت لا يصبر.

لكنه الآن ربط الجرح وصبر، وعرج على قدمه المكسورة حتى عبر، ثم حين عبر وجدَ هناك صاحبه، على الضفة الأخرى، ووجد كل جميلٍ معه؛ وجدَ نفسَه.



إنني في حضرتك هذا الجندي الجريح، الذي لم يولِّ دبره على الجبهة، ولم يتولَّ يوم الزحف، ولم يغادر أرض المعركةِ إلا بعدما غدرت به المعركة؛ فتركَتْه ولم يتبقَّ في الجيش غيره، ولم ينجُ من القتل سواه، محاربًا بأسلحة صدئةٍ. وإنه لم يكن لينجوَ، لكن اللّٰه سلَّم.

إنه بين يديك مهيض الجناح، وأمام عينيك محنيَّ الظهر، ومقابل قدميك عكازاه آيلان للسقوط، وهو فوقهما على وشك الانهيار؛ إلى أن وجدَك، فتزوَّد بنظراتك، وارتوى بأنفاسك، واستعان بصفاء وجهك السماوي على كدرة وجه الأرض، وحملته أجنحتك الملائكية؛ فحَمَته من قرون الشياطين.

إنني هنا في خيمة إسعافك؛ أتماثل للشفاء، لا لأعود لأرض المعركة فألملم منها أشلائي التي طارت، وإنما لأحلق فوق كل المعارك، وبين جنبيَّ روحُك تطير.

الآن مدي يديك، وأسبلي عينيك، وتنفسي شهيقًا من أنفاسي، وأطلقي زفيرًا يدفئ صدري؛ لأبايعكِ أنك -واللّٰهِ- الحبُّ الذي جَبَّ كل هزلٍ؛ ظُنَّ حُبًا.. قبلك.

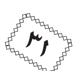


(١٢)

إلَى أنْ يأتي ذلك الذي له القدرة وحده على أن يبدل دمعاتها من مجرى القلب إلى مجرد الوجه؛ مضحكًا إياها بعد طول وجوم، ومشرقًا عينيها برقرقة عينيه بعد انقطاع ضياء، جاعلًا أقسى آلامها هو انتظار مجيئه وثاني أقسى آلامها هو خشية رحيله حين يحضر.

لم يكن الفتى بأحسنَ منها حالًا؛ كان يسكن قلبها البرئ؛ يراها من خلف أوردتها التي تشوش الرؤية عليه، يراقبها في صمت، متسللةً أنفاسه من خلال نبضاتها، وفجأةً يسكت النبض، ويهدأ المكان بالداخل، ويُنصت وجدان الفتاة؛ فإذا صوتُه بداخلها يغرد منفردا.

وفي الخارج.. كان هناك، حيث يقف على اسمها، يُخيَّل إليه أنهما يتكَلمان، يقبض على يده كأنها قبضتها، يربت بيده على كتفه متخيلًا أنها كتفها، يدقق في تفاصيل كفه كأنها كفها، ثم يمسح بطرف إبهامه دمعةً ساخنة على



خده، وهو يقول بصوتٍ حنونٍ كأنه خارجٌ مع زفيرها هي: «لأجلي.. كُن بخير».

وهناك.. في الخارج أيضًا، لكن في ناحيةِ أخرى من العالم الكبير، كانت ساجدةً في محرابها، تردد وصوتُها أقرب إلى طفلة دون الثالثة تبكي بإلحاح: «اللهم أعِنهُ على شقاء الحقيقة بشفاء الخيال، وصبِّره على مرارة الواقع بحلاوة البُشرى».

ثم رفعت من سجودها؛ فجفَّت الدمعات على خده.



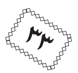
(١٣)

ولَم يكن الفتى يرى غيرها كل ليلة؛ يغلب شعورُه بأنفاسِها شعورَه بأنفاسه، يسمع همسها أوضحً في أذنيه من ضوضاءِ الكون؛ يجد في صمتها ألفَ صوت، إلى أن تتحدث؛ فيجد في صوتها ألف صمت، وذاك هو حال المحب حين تولد له نفسٌ أقرب إليه من نفسه.

كان مسكينًا بقدر براءتها، يحتاج إليها بقدر ما تحتاج إليه، يجمعهما الوصالُ الروحي كل مساءٍ؛ فيراهما أهلُ السماءِ روحين لا تنتميان إلى الأسفل.

رجفة الفؤاد، قشعريرة الجسم، تنهيدة الضلوع، ضمُّ القبضتين إلى الصدر وغمضةٌ طويلةٌ بها من الحنين المتألم ما يعجز العاشقون عن حكايته؛ كل ذلك لم يكن سوى ناتجٍ لمعادلةٍ؛ عناصرها نظرة منها في نظرةٍ منه.

كانت عينها عسليةً، تمامًا كقبة الصخرة حين تستظل الشمسُ بدفئها، وكانت عينه كقبة الصخرة أيضًا لكن بالليل إذا استراحت إلى أكنافها الأقمار.



بالضبط كما تشعر الآن كان بينهما شيءٌ قدسيٌّ تكاد تعرفه لكن لا تستطيع فهمه؛ ككل الجمالات حين تُرى مخبوءةً في غموضها كأن سر جمالها في بقائها سرًّا.

وهما على ذلك كل ليلةٍ، يتيممان بالحلم لأن الواقع جاف، إلى أن ينزل الغيث فيبطل التيمم.



(١٤)

- اشتقتُ..

- وما أصبرَكَ على حرارة الاشتياق؟

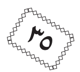
- دفء اللقيا حين تأتي..

- لكنني أشفق عليكَ أن تشتريَ عذاب المخاطر براحة الخاطر، وأن تشتريَ خفَّة الأحمالِ بثقَل البال. فما يدفعك إلى المخاطرة وأنت لا تملكُ غير قلبٍ واحدٍ وعمرٍ واحدٍ وفرصةٍ واحدة؟!

- لا يدفعني إلى ذلك غير أنَّني أحب؛ وإن المحبَّ يرى الدفء وراء الحرارة، والحلو وراء المرارة.

- ومن أين لك هذا اليقين في حكم بلادِ فارس وأنت لم تزل بعدُ في الخندق؟!

- اليقينُ ذاتُه الذي جعلكِ صدقتِني حين وعدتُّكِ بسواريْ كسرى.



- أليس عجيبًا أن تردَّ بهذا القدر من الثقة؟

- ليسَ أعجبَ من أن تسألي الأسئلة نفسها للمرة الألفِ برغم أنك تحفظين الأجوبة!



(١٥)

ثُم إنك كلما حاولتَ الهروبَ من طيفها بعد طول تعلُّقٍ اكتشفتَ في روحِك ما لم تكتشفه من قبل؛ فوجدتَّ نفسك هائمًا بين طيات التذكر وذُرا التفكر.

فإذا أغمضتَّ عينيك وجدتها تنتظرك بينهما وبين جفنيك، ثم إذا نمتَ بعد طول مراوغة علمتَ أنها سحرَت روحَك وخدرت ضلوعَك؛ فغفوتَ هاربًا منها، وصحوتَ هاربًا إليها.

في منتصف الليل، تتفقد آثارَها بين دقات قلبِك؛ لعله همسَ باسمها ذاتَ نبضة، فلا تجدها بين ضربات قلبك، وإنما تجدها قلبَك، وما أَنتَ إلا نبضاته -إن شاءت-.

تحاول الفرار مِن روح تملكت روحَك، فتجد أنك لا تفر منها إلا إليها؛ فتدرك أنَّ وصل الروحِ لا ينقطع؛ وإنما يزداد تجمعا كلما شئتَ أن تفرقه، ويتصلَ أكثر كلما أردتَّ أن تباعد بينه وتقرر بَوْنَه!

سيدتي، أما بعد، فإنَّ الإلحاد بحثًا عن الحقيقة لا يقود إلا إلى الإيمان، وعليهِ.. فإن الهروب من الحب يفر بنا حتى يتيهَ ونتيهَ؛ ثم نصل مجددا إلى الحب، كأنَّ بني آدم جميعًا خُلقوا من الأرض فمنها وإليها يعودون، ووحدي خُلقتُ لكِ؛ فمنك وإليك أعود!



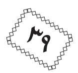
(١٦)

أودُّ أن أخبركِ بغاية امتناني لكِ؛ إذ إنني اليوم أرى نفسي كاملًا مِن الزوايا كلها، في مرآتكِ الصادقة، وبعينيك المنصفتين. حين بصُرتُ بكِ لأول مرة استطعت أن أرى نفسي، كبُرعم صغير لم ينمُ إلا حين سلَّم عليه شعاعُ الشمس؛ فوهبه زهرةً وأوراقًا، وشدَّ له عودًا وساقًا.

إنني لم أكن أرى في نفسي أي مدعاة لحبٍّ، ولا سببًا لإعجابٍ، إلى أن رأيتُ إعجابَك، وأحسستُ حبكِ؛ فأحببتُني لما أحببتِني.

إنني لم أكن أعلم إن كان شخصي مقبولًا، أو كان لكلامي أثرٌ، أو كان لصمتي هيبةٌ، أو كان لضحكي صدى، إلا حين رأيتُ عينيكِ تلمعان كلما أخبرتك بجميل، وثناياكِ تتلألأ استجابةً لابَتسامتي، وقلبك يسكن مهابةً لصمتي، وروحكِ تذوب استجداءً لصوْتي.

سيّدتي.. وإنه لأحبُّ نداءٍ إليَّ حين أناجيكِ؛ نداء الضعيف الذي قوته روحُك رغم ضعفها، كأنهما سالبان



نتيجة ضربهما قيمةٌ موجَبة، ونداء الباهتِ الذي لوَّنَتْه جمالاتُك فأضفَت عليه الحياةَ وأضافت إليه الروحَ، ونداء الفتى الذي وجد في حضرتكِ صغَره وكبَره.. معًا.



(١٧)

سيدتي.. كيف حالك؟ أعلم أنَّ طول الانتظار أرهقك، ودنوَّ الانفجار أرَّقك؛ كبركانٍ تصرخ حممُه كلما اقتربت ساعة ثورته. لكن لتعلمي: إن معركتنا من البداية ليست في إقناع العالم بعدالة قضيتنا؛ فليست نظراتُ العالم مهمة بالقدر الكافي أن نضيع من أجلها ولو فصلًا واحداً من روايتنا. فقط يمكننا أن نتنازل فنضيع سطرًا واحدًا في صفحتها الأولى نقول فيه:

«انتهى العالم حين بدأت قصتنا».

إن معركتنا الحقيقية في تلك المِرآة بعينيكِ مبصرا فيها نفسي، وبِمِرآتك في نفسي تجدين فيها عينيك. معركتنا الحقيقية هي أن نقتنع بأننا لم نُخلق توأمًا متماثل الأقطاب، بل إن أساس علاقتنا هو الاختلاف مع القبول، والقبول مع التغاضي، والتغاضي مع الرضا، والرضا مع التضحية، والتضحية كي يبقى قمرُنا دائرًا في فلكه حول كوكبِنا، بفعل قوى التجاذب الروحي بيننا.

صغيرتي، ها أنا ذا أحملك فوق ظهري إن كانت الطريقُ وعرةً أضطر فيها إلى خفض قامتي، وأحملك بين يديّ كلما استوت هامتي. وإنني أرتوي بالنظر إلى تلك القمة تدنو منا حين ندنو منها يومًا بعد يوم، وأرى في عينيك السحبَ التي استودعنا فيها أحلامنا.

فتمسّكي بي جيّدًا ولا تلتفتي؛ كي لا يختل التوازن بعد طول مثابرة.

عزيزتي.. أنا هنا، أنتظرك بعد سقوط العالم بمحطتين.



(١٨)

بيننا بحرٌ وحدودٌ؛ تطير فوقهما «صباحُ الخير»، وتتجاهلهما «تصبحين على لقيا»، وما زلتِ كلما أخبرتُك: «أنا بجانبكِ»؛ تصدقين كلماتي وتكذبين المسافات.

أما بعد، فاعلمي أنه كلما عزَّت اللقيا وقلَّت السقيا، وأجدبَت شغاف القلب في بُعدك، وذبلت زهور الروح من بَعدك؛ فصلاتي كلها استسقاء، وطيفك كله ضُحى، وما زلتُ على الأطلال أنتظر الندى.

نعم، كنا وحدنا طيلة الطريق، نسير مجهدين دون أن ننطق بحرف واحد؛ وجوهنا باتت مسودةً شاحبة مِن مشقة السير، كفنجانَي قهوةٍ بعد احتسائها، رؤوسنا حامية، ووجوهنا دامية، يمر علينا ألف ليل وألف ألف نهار، يطحنانا بين رحاهما؛ لكننا لم نشكُ ولم نزعج أحدًا بتفاصيل رحلتنا الصعبة، حتى إذا وصلنا نهاية الطريق، وبلغنا غاية المشوار،



ووجدت العيونُ ما كانت تراه في رؤياها قد صار في رؤيتها، وأن حلمها بالحياة أصبح حلما تحياه.. تعانقنا، وضجَّ الكونُ كله بصوت بكائنا.



(١٩)

إليكِ..

ستَنبت من بين رحى المحنة زهرةً تشبهك تمامًا؛ عطرها كأنفاسكِ وأوراقها كذكريات وصالنا، ساقها يتراقص كالليالي التي تشهد لقاءاتنا على ناصية الحلم وفي ساحة الأرواح، وبراعمها تتعانق ذائبةً كلما مر بها طيف الشوق أو اشتياق الطيف.. كأقمارٍ مجنونةٍ قررت ضمَّ كواكبها متجاهلةً أفلاكها وقوانين الجاذبية.

وجذر زهرتنا غليظ كميثاق الحب المعقود بيننا، تشرق بين أليافه ولحائه خيوط الشمس الدافئة، منذ أعلنت الحياةُ استقبالَ مولودٍ جديد؛ هو ميلادنا نحن مِن رحم الجمال، يوم التقت عينًانا؛ فتمخَّض القلبُ.. فولد حُبا.

لم يكن الشوق قد بلغ أشُدَّه بعد، حين حسبناه -ببراءتنا- قد بلغ أشده واستوى، إلى أن ابتلينا بالبعد واختُبرنا بالظروف، كأنه أريدَ لنا أن يحدث ذلك؛ لتهمس المسافات

بيننا بهمس حنون: يا صغيراي، إنَّ الشوق لا بدءَ له ولا انتهاء، ولا ريٍّ به ولا براء؛ هو المرض الذي لا شفاء منه وهو الشفاء الذي لا مرض فيه، حلوٌ في مرارته، ومر في حلاوته، عذوبةٌ، وعذاب.

إنه ببساطة ملتقى الأضداد لتصير مبنى واحدًا، واتحاد المفاهيم لتصيرٍ معنى واحدا.. هو أنت. وغدًا ينزل الغيثُ بعد الجدب مدرارا، وتمطر السماء بعد الكدر أقدارا؛ أولها عسرٌ، وأوسطها يسرٌ، وختامها مسك؛ فيصير طيفكَ حقيقةً ويصبح وجدانُكِ وجودا، ويستحيل الصبارُ -بقدرة قادرٍ- جنةً من ياسَمين.

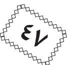
(٢٠)

سلامٌ عليكِ بمَن شاء جمعنا بغير منطقية ترتيب ولا سابقة تقريب، سلامٌ عليك بمن شاء لشتاتِنا أن يلتئم، بتعثر روحي في روحك ذات ليلةٍ من ليالي القدَر والقمر معًا.

أود أن أخبركِ باعتذاري على كلامي أن نزهد في وصالنا متعللا بالبحث في نفسي عن الكمالِ، راغبًا في العزلة. كنتُ أظن نفسي تحررتُ منك، فما إن خرجتُ حتى اشتقت إلى شباككِ، وعرفتُ بصدقٍ هذه المرة؛ أنَّ الذي وجدتُّه في غيابكَ لم يكن إلا نقصًا يستره وجودك، وأنني عرفتُ نفسي بكِ؛ في أمل المجيءِ إليك، ويقين الأنس فيك.

عرفتُ أن الروحَ منفردةً تكون أنقص العالمينَ مهما كانت عارفةً بشتى ضروب الكمال، وأن الروحَ لا تبلغُ الكمالَ فعلًا إلا إذا رأت نفسَها ناقصةً وهي وحيدة، وأن روحُي إلى روحك، وروحك إلى روحي، وكلانا بصاحبه يكتمل.

عرفتُ أن القلبَ لم يكن يومًا كتابَ رياضيات حتى يَحسب الواحد مضافًا إلى واحدٍ.. اثنين؛ وإنما لا يراهما إلا كسرًا



جبَره كسرٌ؛ فصارا معًا واحدًا صحيحًا. فإن الكمالَ ليس في بمفردي منعزلا عنكِ، وليس بكِ منفردةً به عني؛ وإنما يكون بنا؛ أنا وأنتِ، حين نكون معًا واحدًا صحيحًا؛ بدلا مِن أن يعيشَ كلٌّ منا لوحده واحدا مكسورًا.

عرفت أيضًا أننا منذ رضينا بالحب معًا، وارتضى بكلَيْنا معًا؛ فكأننا وقَّعنا على أنفسنا عهدًا؛ مفادُه أنني واحدٌ مقسومٌ على اثنين؛ نصفه لي ونصفه لكِ، جسمه أنا وروحُه أنتِ، وأنكِ كذلك لم تعودي لكِ وحدَك، وإنما واحدُكِ مقسومٌ على حدين.

عرفتُ أنَّ الحب معادلة معقَّدة جدًّا.. تحاول إثبات أن «اثنين في واحد» يساوي «واحدًا على الاثنين».



(٢١)

حريصٌ جدًّا على قواعد اللغة، وتنسيق الكلام، ووزنِ موسيقاه وإلم يكن شِعرًا، لكنْ مذ عرفتُك؛ بدأتُ التمردَ على القواعدِ ومخالفةَ التنسيقِ؛ أختار من الحَركاتِ ما يناسبُكِ، لا ما ينَاسبُ الحروفَ والكَلماتِ ومواضعَها منَ الإعراب.

مع أول اعتراف بالحب لك، لم أستطع كسر «كاف» مخاطبتك؛ أحسستُ أن كسر حرفٍ يخصُّك بعدما ضممتَني في حرفِ المضارعةِ الذي يخصني، في أولِ كلمة قدسيةِ بيننا- هوَ قمةُ النكَران ومبلغُ الجحود، وأَظنُّ أنَّ مخلوقًا جميلًا كالنحوِ لم يكنْ ليغضبَه أن أظلمَه مرةً على حسابِ إنصافك أنت، في مجردِ حركةٍ على حرف.

يعني:

ضممتَني في الألفِ يا إلْفي؛ فما كان مني إلا أن أسكِّنك في الكاف يا كافيتي؛

أُ.. حِبـُّ.. كْ.



(٢٢)

سلامٌ عليكِ، سلامًا لا يكترثُ إلا بأننا وحدنا نعرفنا، ولا حاجةَ لكلَيْنا بإيضاح حقيقتنا لِمَن سوانا.

سلامٌ عليك، ووحدكِ تعرفين السلام الطائر فوق ألفِ مدينةٍ ويعرفك، لا يبالي بالناسِ وما يتطلعونَ إليه في معرفة مَن تكونين، ولا ينشغل بفضولهم نحو حقيقةِ وجودِكِ من عدمك، وهل ما أكتبه لكِ حديث البعيد أم مناجاة القريب.

حبيبتي.. يا عالَمي الضيق، وكوْني الفسيح، يا مجمِّعة الأضدادِ فيكِ وموحدة الأقطار بمركزك. كنت قد حكيتُ لكِ مرارًا عن العيد، فوجدتك منذ عرفتِ حقيقة معناه تحتسبين للّهِ صومَك، فأخلص للّه حجي؛ حتى إذا جاءت ساعةُ التكبير ذقنا الفرحَ مكتملًا، وسُقينا الجمالَ من أصفى منابعه.

اليوم هو المناسبة رقم (وحدَك تحفظين الرقم) وأنا بعيدٌ عن العيْن على مرمَى قدَرٍ منْها، قريبٌ من الفؤادِ ملتصقٌ

بالروح؛ لكنني موقنٌ أنَّ يومًا ما، سأمسح ما بين القوسين من أرقام، وأكتب: المناسبة (الأولى)، التي أنا فيها قريبٌ من العينِ قربي من الفؤاد، ولا مناسبة أَوْلى من كوني معك!



(٢٣)

سيدتي، رسالة اعتذار..

لا أكتبُ إليكِ منذ وقتٍ طويل؛ لأنَّ الشوق ضاقتْ به دَواتي هذه المرة، وتمرد قرطاسي على قبول الحِبر، ويسقطُ القلم كلما أردت تثبيتَه بين أصابعي، لكنني أعلمُ أن الذي يجعل الحب يثبتُ في عينيْن لم تلتقيا إلا مرة، قادرٌ على أن يجعل الأخبار تصلُ وإن لم أسردها في كل مرة.

بابُكِ معروفٌ والطريقُ إليكِ واحد، وبحرمك أخلعُ قلبي وروحي وعقلي وأسلمهم لك وحدَك، لا جنديَّ يفتش، ولا بوابة تَصفِّر، ولا تصريح يُمزَّق، وأعلم وتعلمين سبيل الوصلِ الذي نسلكه معا؛ فمهما خلَّت بيننا الحواجز والمسافات والأزمنة، فإنني لن أقبل بنصفكِ، ولن أعيش بغيرك؛ وإنما محيايَ بكِ -كاملةً- فقط.

إنني مؤمنٌ تمامًا أن الأرواحَ تتخاطر، والقلوب تتصل، والوجوه تلتقي في صحن السماءِ الأولى؛ مؤمنٌ أنَّ السحابَ

هو الحالة الغازية المكثفة لدموعِنا التي يجعلها الليل بحرًا، ثم تجمعها الشمسُ من فوقِ وسائدنا كل صباح.

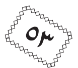
سيدتي، إنني ممتن لوجودِك الدائم، الذي يلخص الحبَّ في رؤيتك لي، وإبصارك بي، وإدراكك إياي؛ لتراهني وتبرهني أنّ المُحبَّ ليس بمن رأى محبوبَه قمرًا ناصعًا كما يراه الناس جميعًا من بعيد؛ وإنما المُحبُّ من كانت عيناهُ مكبِّرتين؛ تريان نتوءات القمر أكثر من استواءاتِه، وتبصران جانبَه المظلمَ أكثر من بياضه.

سيدتي،

شكرًا لعينيك اللتين تَصبران على ما تُبصران، وتؤمنانِ بالجمالِ القليلِ، وتكفرانِ بكل قبيحٍ وإن كثر.

شكرًا لعينيّ جمالك، ولجمال عينيك، وأعتذر على ما تُبصرانِه، وأمتنُّ لما تصبرانِ عليه.





(٢٤)

عزيزتي فُلانة..

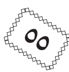
ووحدَك ستقرئين اسمكِ مخبوءًا خلفَ الحروف المبهَمة، ووحدكِ ستعرفين أنَّ «عزيزتي» في مناجاتي إياكِ ليست عفوية كعادتها في بدايات الخطابات أو مستهلِّ الرسائل.

«عزيزتي» التي عزَّت روحي في كل فقدٍ، وأخلفتها كل جميلٍ، وآمنتها من كل خوف. «عزيزتي» التي أعزَّت قلبي من كل دنوٍّ؛ فسمتْ به إلى سدرة الوصال. «عزيزتي» التي عزَّ عليَّ أن أجدَ لروحها شبهًا ولو في تفصيلةٍ واحدة.

وحدَك تقرئين ما خلفَ كل حرف، وتفهمين ما وراء كل معنى، وتُبصرين تفاصيلَ ما يراهُ النَّاس مجمَلًا، وتدركينَ الجمالَ في كل بسيط، وتؤمنين بالبساطة في كل جمال. إنني آمنتُ بروحك فيَّ، وأمِنتُ على روحي فيك، فسكَنتِني حتى سكَّنتِني.

عزيزُك (يوسُف) ووحدك تقرئين اسمي حرفًا حرفًا، كأنَّه ثقيلٌ على نفسِك أن تنطقيه دفعةً واحدة، كما أنَّ اسمكِ ثقيلٌ على نفسي ذَكره أصلا؛ فأختبئ منه وراء «عزيزتي»، وأهرب من المتنِ خلفَ الحواشي، وأحتمي من الحقيقةِ وراء المجاز.





(٢٥)

رفيقتي الصابرة..

سلامٌ عليكِ ما شاء اللّه أن يصبِّر قلبَك الورديَّ، وسلامٌ بكِ ما شاء اللّه أن يُنبت الوردَ من بين أشوَاك الصبَّار.

لم تتكلمي، لكنْ وصل إليَّ -بالإحساسِ- خبرٌ ما يبكيكِ منذ مدَّة، وينغص عليكِ نفسكَ التي بين جنبيك، وروحك التي بين جنبيَّ، وفؤادَكَ الذي يحوي قلبي، وصدري الذي يحوي ضلوعك، وخَدي الذي يحوي دموعك.

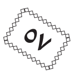
أعلم أنهن جميعًا يأتين إليك وفي أصابعهن مواثيقُ الجلالِ والجمالِ ملخّصةً في خاتم، وترينهنَّ وقد تجمّلن بأقدسِ ما تحبُّ كل فتاة؛ بـ«الفستانً الأبيض».

بعيدٌ لكن رأيتُ عينيْك الصدَفَتين إذ سالتْ منهما اللآلئ وتناثرتْ على سطح خدَّيْك، حين رأيت صورهنَّ، وفي يدِ كل واحدةٍ منهن رفيق الحياة معلنًا حياةَ الرفق. (أكتب الآن إليك ودموعك ترسمُ خطًّا ممتدا من عينيك إلى ذقني).

أما بعدُ؛ فإنها الدنيا تباعدُ بين بنيها الأقدارُ وتجمعهم كما يشاء الله، وإنها الحياة حيث تصهرهم الأمكنة وتصقلهم الأزمنة حتى تختبر عهودهم، وإنه الحب حين يجعل كل الدنيا فيكِ وكلَّ الحياة بك، وإنه الصدقُ حين يجمع بين تقلبات الدنيا وانعكاسات الحياة وحلاوة الحبِّ في إنسانةٍ واحدةٍ؛ (هي عندي أنتِ).

أما بعدُ.. فلا تطيلي النظر إليهن؛ ولا تفكري إلا باختيارِ فُستانِك، وألوان الحوائط، وغرفة الأطفال.





(٢٦)

أمَّا بعد (بفتح الباء أو ضمِّها هذه المرة!)، ولعلها الرسالة الأخيرة، أو الأولى ضمن مجموعة من الرسائل الأخيرة. وكما تعلمين؛ فإنَّ الذي يكتب لا يتحكم بقلمه كما لا يتحكم بقلبه، وإنَّ القلم والقلب يموجان في صفحةٍ واحدةٍ، يُملي كلٌ منهما على صاحبه ما يشاء.

تشهدين أنني أخلصتُ حتى انخلعَت نفسي من جسمي وأسكنتُك محلها، وأحببتُ حتى انخلع قلبي من صدري وأسكنتك مكانَه، وصبرتُ حتى انخلع الثَمَرُ من أغصاني فسكن الَجمرُ بدلًا منه؛ وإنني واللّه لو أردتُّ الراحةَ لما أحببتُ ولا أخلصتُ ولا صبرتُ؛ لكنَّها المروءة التي رباني عليها اللّه، ثم أبي، والقلم.

أما بعدُ فإنَّ الخوفَ والحبَّ شعوران، وأيّما شعورٌ فيهما سبَقَ أخاه فلا عزاء للآخر. أما عن الحب فغلبتُ به خوفي، وأما عن الخوفِ فغلبتِ به حبك وحبي، وإنَّ الجريمةَ التي ارتكبتِها هِي أكبرُ عمليةِ إبادةٍ جماعيةٍ للقلب وللعقلِ وللروحِ.. برصاصةٍ واحدةٍ.

كانت -حفظها اللّه- تقول لي دائمًا: «يا بُني، ارفق بنفسك؛ فلعلَّ يومًا يصير ما لا يُحمَد»؛ فأبتسم لها ابتسامةَ قائدِ جيشٍ تعدادُه مائة ألف، وأقول لها: «يا أمي، لن يكون إلا ما نريدُ إن شاء اللّه»؛ لكنَني لم أكن أعرف أنَّ عدوًّا أعزل اسمه الخوف، كان قادرًا على سحق جيشٍ كاملٍ من الأرواح الصادقة.

(٢٧)

أمَّا بعد، فإنَّ الحبَّ هو الشعور الأسمى، ولا يعكر صفوه إلا البُغضُ الأدنى، أو البَعضُ الأدنى. وإنَّ أحدَنا لم يخن صاحبَه، وإنَّنا لم نتخلَّ ولكن خلَّوا بيننا. كنتُ أخبرك أننا إنْ تخلينا فلن نجد إلى الأبد، والآن أخبرك أننا حين خلوا بيننا لم نجد إلَّا الأبَد، وإنَّ حبنا شهيدٌ لا يكفَّنُ ولا يُعزى فيه.

وإنني والله كان أهون عليَّ أن أدفع ضريبة قضيَّتنا دمًا بدلًا من أن تدفعيها دموعًا، وأن أدفعها إخافةً بدلًا من أن تدفعيها خوفًا، لكنها الأقدارُ حين تغلق الستار وتكتب -بلا مقدمات-: «النهاية».

أما بعد، كنتُ مؤمنًا بالحب وبك وكافرًا بهم، والآنَ كفرتُ بالكل، وآمنتُ بي وحدي، وأمِنتني وحدي.

أما بعد، فالسلام على قوم تجرحت أياديهم من القبض على حبل الوصال، والسلام على قوم قُطعت أياديهم لأنهم لم يفلتوا الحبال، والسلام عليكِ، السلام الأخير، سلام المهزومِ على أرضهِ المحتلة.



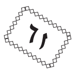
(٢٨)

هذه هي الدنيا يا صديقتي -التي كانت-، ولا أعرف الحكمةَ من الكتابة إليك بعد الآن. يقولون لا تعذب نفسَك بالتذكر، وانفض يديك من آثار الحبرِ المتقطر، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاءَ من غير سوءٍ تارة أخرى.

لكنه لا يعرفُ العذاب بالقيد إلا مَن حزَّ القيدُ رسغَه، ولا يُدرك المرارةَ إلا مَن جفف المرُّ حلقَه، ولا يبكي على الأطلال إلا مهدومُ البيت مسلوب السكن.

أما بعد، فإنَّ القلمَ بندقية، والكلمة زنادٌ، والحرف رصاصة، وأنا وَحدي السيف والدرع الذي يصده في الآن ذاته، وإن الكلمة لا تصيبُ أحدًا إلا بعد أن تخترقني كاملةً، ثم لا يصيبُ الآخرين بعدي إلا ما تطاير من شرارٍ.. كأنني كلما كتبتُ، بُريتُ أنا بدلًا من القلم.

أما بعد، فليس على الفؤادِ أثقل من أن يسمع نبضاته تدقُّ في فؤاد غيره، أو أن يرى جزءًا منه، صار لا ينتمي إلَيه، أو كُلًّا، صار لجزءٍ غيره.



وعلى كلٍّ فإنني قررتُ أن أكتب.. عن الموتِ، كما كتبتُ عن الحياة، وعن الشوك، كما كتبتُ عن الشوَق، وعن كل شيءٍ خارجك، كما كتبت ألفَ يومٍ عن دواخلك.



(٢٩)

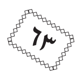
لم أكن أعلم أنَّ التفاصيل الصغيرة حين ترحل، بإمكانها أنْ تترك هذا الفراغ الكبير في حياتي، حتى صارت دنياي كالثوب المرقَّع، ولا أعلم مَن الذي يرقع مَن! ألذكريات ترقع نفسها بالأيام لأنساكِ؟ أم الأيام ترقع نفسها بذكرياتك لآنَس بك؟

أما بعد، فإنني بعدما ذقتُ المرارتين أدركتُ أنَّ الفراق بعد اللقيا، أهون من الفراق بعد طول أمل في اللقيا، كالذي يغادر الحياةَ بعدما عاشها، وهو أحسن حالاً، ممن انتظر طوال الحياة على أملٍ أن يعيشها، ثم مات، وهو لم يذق من الحياة إلا انتهاءها.

تعلمين؟ إنَّ البُعدَ جعل الليل والنهارَ قطعةً واحدة؛ لا ينفرد الليل وحدَه بالحزن، ولا ينفرد النهار وحدَه بالزفير؛ وإنما نزفرُ الحزنَ ليلَ نهارَ بنسق واحدٍ أسودٍ لا يتغير لونُه ولا يتبدل إيقاعه.

شيءٍ- عدا الشيء الوحيد الذي كان يجعلها فارغةً من كل شيءٍ عداه.





(٣٠)

سيدتي، التي كانت..

يقولون إننا بعد الفراق نُبعَث من جديد؛ فتتفتح القلوب، وتورق الأفئدة، لكنني لا أرى الفراق إلا فطامًا عن الحب، وركونا إلى العزلة، واجتنابًا لكل ما يدق القلب؛ لأنَّ الجرح لا يندمل، وإن اندمل، فإنه يبتعد خشيةَ جرح جديد.

أما بعد، فإنها الدنيا تُباعد، والمسافاتُ تفرق، والأرواح تتمزق بين ذراعين تتعاركان؛ لكنني بعد انقطاع أدعو وبعد عجزٍ أعدو وبعد يأس أعود لأكتب إليك.

يقولون لي إنَّ للمشاعر قدسيةً أكبر مِن أن تبوح بها، وللحكايات خصوصية أضيق من أن يعرفها الجميع، وهم لا يعرفون أن الأصل في الكتابة البوح، وأن البوحَ هذا بحد ذاته كتمانٌ لفصول الرواية كلها عدا الأخير منها، والذي نكتبه ها هنا.

وإننا أكثر مَن يعرف كيف يحفظ للمشاعر قدسيتها، وللحكايات خصوصيتها؛ فهل هناك أقدس من الكتابة لك على مرأى الجميع ثم كتم اسمك في صدري وحدي؟

أما بعد، فإنني أشكوكِ إلى القلم، وأشكو الحروف إليك، وعزائي أنني أكتب إليكِ بعد الرحيل فصولاً أطول؛ لأن الفصل الوحيد الذي كتبته في وجودك كان من أربعة أحرف لا أكثر، وما بعد غيابكِ كان كل الحروفِ.. عدا أولئك الأربعة.



(٣١)

سيدتي، التي كانت..

إن الكلام لو انقطع فالمناجاةُ متصلة، والقلم لو قُصف فالقلب لا يقصف، والصفحات لو ضاقت فإن صفحةَ صدري لا تضيق، والمسافات لو زادت فإنها من الأول كانت بيننا، والروح هي من استطاعت تبديدها.. ومتى استُدعيَت الروحُ تمددَتّ في مداها، حتى بَددت ما عداها.

أما بعدُ، فإنَّ الأيام دائرة، وإنني حين أكفُّ عن الاتصال، لَستُ أكف عن الوصول. وإنها الحكايات حين تزيد عندما تنقص، وتكتمل حين تنتهي، وتحنُّ حين تقسو، وتصل بعدما تضل.

كنتُ قد راهنت نفسي ألا أكتب إليكِ مجددا، لكنني مجددا، أخسر الرهان، وأرهن نفسي كلها، لكاف مخاطبتك وحدها.

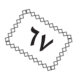


(٣٢)

فاتَ وقتٌ طويل منذ آخر مرة التقينا فيها على ناصية الحلم. رأيتك الليلة. كنتِ واضحةً جدًّا؛ يكاد سنا برقك يخطف الأبصار، ضاحكةً، وفي أذني صوتك الذي لم ينقطع، بل صار أعلى بعد الفراق مما كان قبله، وبدوتُ أمام طيفك صغيرًا يقتبس من نورك الكبير، وطفلًا تشمله أمومتك.

في الحقيقة، بعد مُضيِّ فرص اللقيا وفوات شهور الفراق، بدوتِ لي في صورتك التي أحببتُها من المرة الأولى، ملامحك الهادئة، ابتسامتك التي تقرص خديك، عينك الرقراقة دائما كأنها تغتسل في نهر الوصال كل مساء، أنفاسك المتهدجة من عجز الحنين، قلبك الأبيض كوجهك، روحك العذبة الجارية بين ضلوعك.

أنا الآن في مرحلة «لو»؛ تلك التي تلوي أعناق الذين أحبوا حدَّ الاحتراق وحتى الاحتراق، كفارسٍ مات حصانه، وانهد حصنه، فبات يحن إلى حضنٍ انتزعته منه الحرب والأشواك، وينازعه فيه الحب والأشواق.



فأعود أسأل:

لو؟ هل؟ كيف؟

لو.. هلَّ.. طيف.



(٣٣)

كنتُ أقرأ ماشيًا من الجامعة إلى المحطة، حين رفعت عيني فجأةً؛ فوجدتك. ساقني القدر إليكِ كما يسوق كل شيء إلى أي شيء. استأذنتُ عمّ يحيى حقي، فأغلقت عليه كتابه وكلماته، وهو مِن خلف الغلاف يراقبني ويبتسم.

الوجه والعينان والهيئة، والوزن حتى! أُقسم أنَّ كل شيء كان في مكانه، كما هو؛ مشيتك، ابتسامتك العنيدة للدهر، ملامحك الهادئة؛ كان كل شيء في مكانه كما هو.. عدا اسمك وجنسيتك وروحك؛ فعرفت أنها لم تكن أنتِ.

بعدها بخمس دقائق في الطريق نفسه وجدت من تشبهك أكثر! ليس أكثر من الأولى؛ وإنما أكثر منك نفسك! لكنها كالأولى، لم تكن أنتِ. فما حاك في صدري شيءٌ سوى أنني حين رأيت اثنتين منَ أربعينك في ساعة واحدة؛ عرفتُ أنني إذا رأيت الأربعين جميعهن حتى؛ فلن أراك أنت.

ولا أعلم هل كانتا تشبهانك فعلا؟ أم أنني اليوم كنتُ أشبهني حين كنتِ معي؛ فرأيتكِ في جميع الوجوه؟



عدت أفتح الكتاب لأواصل القراءة، معتذرًا لعم يحيى على سوء أدبي؛ فقال: «لا عليك» وانصرف. ثم عدت إلى حيث توقفتُ، فوجدتني عند نهاية القصة، ولم يتبق إلا السطر الأخير، يقول:

«هذه قصة خيالية.. لكنها ليست خرافة».



(٣٤)

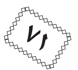
تعرفين؟

إنَّ البُعدَ لم يوَرث قلبي الجفاء، وإن قسوةَ الزمانِ والمكان لم تستطع تغييرَ مشاعري نحوك، وإنَّ ألف مارٍّ بدياري بعدكِ لم يُحلِّ المرارَ الذي رسَّبَه في فؤادي مرورُك بلا عودة، وإنَّ تَذكرة «صاحبِك» كانت ذهابًا وإيابًا، لكنهم في مطارِ القدر مزقوا تذكرةَ الإياب، وصادروا حلمه.

إنني يا صديقتي ما زلتُ محبوسًا داخلي، منذ أن فكوا رُسغَينا من القيدِ الواحدِ الذي كان يجمعهما. إنَّ سورَ سجني كل يوم يعلو، وكلما ثقبتُ في حاجزِ البُعد ثقبًا، أتى القدرُ مرتدياً ثياب ذي القرنين، وسدَّ عليَّ كل فتحات الهرب، رغم أنني أقسمت له ألف مرةٍ أنني يوسف، لا يأجوج ومأجوج.

أما بعدُ فإنني هنا، قابعٌ خلف أسلاك غربتي الشائكة، ما زلتُ أتسلل، ما دامت الدماءُ التي تنزف من يديَّ لم تنتهِ بعد.





(٣٥)

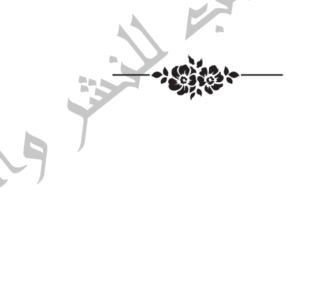
عامٌ على آخر وعد بيننا بالبقاء قبل افتراقنا. لا شيء بقي كما هو. كل شيءٍ تغيّر عدا نقطة واحدة في داخلي لا يعرفها غيرك. يقولون إننا نستطيع النسيان، وأنا أقسم أن استطاعة الموت أسهل. يقولون إن كل شيء «قسمة ونصيب»؛ لكنني لا أرَاها إلا منشارًا «يقسمنا» إلى نصفين، أو صليبا «نُنصَب» عليه متدليةً أعناقُنا.

أتذكرين؟ ذاك الطفل الذي ربيتِه صغيرا؟ أجل.. الآن كبر؛ لأن طفولته راحت حين رحتِ، أو حين أريد للقصة الانتهاء. لم يعد يغمض عينيه وأنت بين عدستيه وجفنيه، بل صارتا جافتين كأي عينين لم يعرفا الحب يوما، غير أنهما ما زالتا تلمعان؛ لأنهما عرفاه.

تتذكرين جسمي النحيف؟ صار أنحف؛ ككل المنفيين الذين يزدردون الطعام وحدهم نهايةَ كل يوم طويل، غير أنَّ طبقي صار أكثر مرارة، علقمًا مهما حليتُه؛ لأنني لم أكن منفيا مثلهم، وإنما كان لي وطن ينفى عني منفاي، إلى أن رَحل أو رُحِّل؛ فاستوطنني المنفى.

كنتِ تلومين عليَّ أنني لا أحفظ الأرقام، وأنني كنت متواكلًا عليك؛ لعلمي أنك تسجلينها في مفكرتنا التي بين يديك. تخيلي؟ الآن صرت أحفظ أيام الذكريات وأستطيع تمييز التواريخ وتحديد المناسبات؛ فقط لأنك رحلتِ، ومعك مفكرتنا، وكل الحروف، وكل التواريخ، وكل الذكرياتِ.. ولم يبقَ لي إلا الأرقام.

أكتب لكِ اليومَ، إذ يوافق ذكرى فراقنا خسوفُ القمر.. والذي يحدث حين تمنعه الدنيا.. مِن أن يرى الشمس.



(٣٦)

سيدتي.. رسالتي الأخيرة..

إنها الأيام التي تدور وليس نحن؛ كنا ثابتين وما زلنا. لكنَّ الظلامَ ليس ذنب الكواكب؛ وإنما هو الزمان الذي يقضي عليها بالليل بعد النهار، كما يقضي عليها بالفجر بعد الليل، وهو الذي حكم بالرسالة الأولى، والآن يحكم بالأخيرة، ولا يقبل منا أن نؤمن ببعضه ونكفر ببعضه.

إنَّ الذي بيننا لم يكن بركة ماء راكد؛ وإنما كان نهرا جاريًا عذبًا؛ عزاؤنا فيه أنه كان عذبا، وعذابنا فيه أنَّ ماء النهر لا يعود إلى منبعه.

أمَّا بَعْد..

فإنني من الآن سأكتب إلى «سيدتي» الروح لا الاسم، والمعنى لا المبنى، تلك التي في خيالي ولا أعرفها بعد التي كانت في بالي وأعرفها.

مِن الآن سأكتب وعزائي أن الرصاص -الذي في القلم- يصيب أوجاعي في مقتل، وهذا هو تحديدًا ما أريده؛ أن أعالَج بالكيِّ، وأتمدد بين الأوراق.



الثانية عشرة..
ودقيقة..

(١)

وبين المودعين في محطة والمستقبلين في أخرى، تبقى وحيدا من أول محطة إلى آخر محطة، تستقبل نفسك وتودع نفسك.

بين العناقات الطويلة والقبلات المخطوفة على عجل لأن الحافلة ستتحرك- لا يضيرك نداء السائق ولا تنبيه الإذاعة أنَّ على المسافرين الصعود؛ فإنك الوحيد الذي صعد بهدوء، وجلس دون أن يلوح بيده أو يطيل النظر في عيني أحدهم. إنك جالسٌ جامدًا في مكانك، حضنك خاوٍ، وشفتاك زرقاوان.

وتجول عينُك بين الناس والأماكن، وبداخلك صوتٌ -ليس غريبا- يقول: «أنا لا أنتمي إلى هنا»، ويأتيك صدى الصوت: «ولا شيء هنا ينتمي إليك».





(٢)

على السرير، حيث أغمض عينيَّ لأراني من الأعلى، من سحابةٍ في السماء الأولى؛ فأجد طفلًا يجري، منذ سنواتٍ، والمسافاتُ تخدعه، كأنَّ الأرض من تحته هي التي تجري؛ أما هو، فواقفٌ مكانه رغم أنَّ قدميه تتحركان.

أرى طفلا أَحَبَّ فحلم، أو أحب لأنه حلم، ثم استيقظ ففوجئ بالكابوس. أراه طفلًا من الداخل حتى وإن كانت تقاسيم وجهه تحكي عن شبابه، طفلًا ما زال منذ سنواتٍ طويلةٍ ينتظر وراء الباب ليفاجئ أباه الذي لم يرجع من العملِ بعد. ولم يأتِ أباه فظل واقفًا مكانَه، وهو منذ ذلك الحين مختبئٌ، والجميع يفاجِئُه.

أرى طفلا، كان نائمًا على السرير الواسع في حضن أمه، إلى أن استيقظ فوجد نفسه بمفرده، ولم يجد أمه على السرير. وهو منذ ذلك الحين جالسٌ لا يتحرك؛ لأنها كانت تقول له دائما: لا تغادر السرير قبل أن آتي.

أرى طفلًا، نصفه وراء الباب، ونصفه فوق السرير، وبين السرير والباب صحراء كبيرة جدا، كاحلة الظلام لا يرى آخرها، ولا شيء فيها سوى الصبار. وهو منذ قرر مغادرة السرير، يجري بخياله بينهما؛ بين نصفيه؛ النصف الذي وراء البابِ ينتظر، والنصف الذي على السرير، يغمض عينيه، ليرى نفسه من الأعلى؛ فيجد طفلًا في هيئة رجل، يجري منذ سنوات، والمسافاتُ تخدعه، كأنَّ الأرض من تحته هي التي تجريً؛ أما هو، فواقفٌ مكانه رغم أنَّ قدميه تتحركان.



(٣)

تتفحص وجوهَهم، تدقق النظر في عيونهم، تصول وتجول في أرجاءِ ثانيةٍ من الزمنِ ألف مرة. تسألهم: أين؟ لا أحد يجيبك، تتعالى ضحكاتهم، تحملق إليهم وتعاود السؤال، فيستمر الضحك، وعلى ما يبدو، أنت لا تبدو، ولا أحد يراك.

يتعصب أحدهم على الآخَر، يعلو الصوت، تنهرهم، لا يكفُّون، كأن كلمتك لم تعد مسموعةً. يهدأ المكان بابتسامة من أحدهم، لا بابتسامتك، كأن أي أحدٍ قادرٌ على ضبطِ النظام.. عداك.

تجري، يُخيَّل إليك أشباحٌ تجري خلفك، تنحرف يسارًا، تقف مختبئًا خلف قدَرٍ ما، تتنهد، تلتقط أنفاسك، يلمحك قدَرٌ آخر بطرف عينه، تجري، يُخيل إليك أشباحٌ تجري خلفك، تقع، تنكفئ على وجهك، تحاول النهوض بسرعةٍ، لا تستطيع، تمد يدك إلى الهواء، كغريقٍ يتشبث بالموج، فتجد يدك تهوي فارغةً.

تسمع صرخةً، تشعر أن أذنيك طارتا من شدتها، تنفجر رأسك من قوتها، تتحسس رأسك كحركةٍ عفويةٍ لكل مصابٍ بالصداع النصفي، لا تجدها، لا تجد رأسك، تصرخ، أنت بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الصراخ، تشعر في داخلك بتجمع صرخات، حصواتٍ كبيرة على القلب والدماغ، لا تجد فمك، عروق رقبتك على وشك الانفجار، لكن من أي مكان ستخرج الصرخة؟ أنت بِلا شيءٍ تصرخ من خلاله.

عشرة، لا تتذكر غير جمع غفير حولك، ينقص شيئًا فشيئًا، عشرون، ما زال عدد السنين في علاقة عكسية مع عدد الموجودين، يختفون بلا سبب، كما تختفي السنوات بلا نتيجة، يزداد الوجود فراغا، لا يبالي بك أحد، تستمر في الجري وصوت أنفاسك يتعالى، تسقط أمام عينيك للمرة الأولى شعرةٌ بيضاء. تنظر حولك لتنبِّه أحدهم أن شعره يتساقط، تنظر، لا أحد بالجوار، تتحسس رأسك، فتجدها خاليةً، تنظر إلى الشعرة في يدك، تجد أنها كانت آخر شعرةٍ في رأسك، وسقطت.

تدقق النظر في كفِّك، تختفي منها التفاصيل، تقطب حاجبيك، كيف ذلك ومن المفترض أن تزيد تفاصيل اليدين بمرور الزمن؟

الطابق السفلي، صرخة مولودٍ جديد، السلم، الطابق العلوي، صافرة إنذار بطيئة، زحامٌ، العناية المركزة، زحام، عنبر الإنعاش، الـ إن، عاش، صوت الصافرة ينخفض، خطواتٌ قريبة، معاطف بيضاء، كفٌّ دافئة، عيناك تُسبَلان، سواد، خطواتٌ تبتعد، صوت الصافرة يختفي، بياض.

البقاء لله.



(٤)

كل مرة، عند كل نوبة إعياءٍ، بلا مقدمات، حين أجد رأسي بين يديَّ ترى كل شيء منقلبا، كل شيءٍ مضطرب، وأغمضها فأجد السواد نفسه يهتز. حينها أشعر بالموت أكثر. أقول لعلها هذه. أعيش مشهدًا دراميًّا دامعًا مبتسما، كمشهد موت البطل في كل الأفلام. أستعد، وأقول كلامًا لِمَن حولي، أختاره بعناية، فبعد قليلٍ من الوقت سيقول كل واحدٍ منهم: «حبيبي! كأنه كان يشعر.. لقد قال لي كذا قبل وفاته بدقيقتين». لكن بعد المشهد المتقَن، لا أموت؛ يعود كل شيء إلى طبيعته.

أفكر في جدوى المجيء إلى هنا، شعور اقتراب الأجل والدنو من الرحيل، ثم بالرغم من ذلك، الاستمرار على قيد الحياة في أكثر اللحظات شعورًا بالموت. أفكر، أقول في نفسي بالمنطق ذاته: إن الرحيل بالتأكيد سيكون في الساعة التي سنستسلم فيها لفكرة الاستمرار، وأسأل: كم حالمًا

بالحياة أفاق على الموت؟ وكم ملتمسًا للراحة ساعةً قُرر نيابةً عنه امتدادُ راحته إلى قيام الساعة؟ كم باحثًا عن تخليد أثرٍ فارَقَ المسير في ساعة الانطلاق؟

إن الفكرة الوحيدة التي نعجز عن الشك فيها أو محاولة فك شيفرتها هي الموت.. حتى المرضى الذين يتوقعون ونتوقع معهم دنوَّ أجلهم لا يموتون إلا حين يشعرون بالتحسن!



(٥)

كمغترب، كنتُ أبحث عن تكلفة الشحن الجوي للموتى، ثم أحسِبها وأفكر في كيفية ادخار المبلغ حين أعمل.

حالِمًا كنت أفكر، في أنه لو كان بالإمكان ضمان الدفن بالوطن، هناك تحت ترابه الدافئ، وخصوصًا أنني لستُ ممن يقتنعون بأن أرض الله كلها وطن، وأن أقطار الدائرة متساوية.. فالغربةُ غربةٌ والوطنُ وطن.

وأعدد الأسباب: لأن البرد قارسٌ في تراب الغربة، وأيام الأحباب مشغولة، وأنا في الموت -كما في الحياة- أحب الأنس، حتى ولو كنتُ في الظاهر منعزلا. وأقول: لعل الجنازة هناك ستكون حافلةً أكثر، وسيكون طين القبر أحنَّ عليَّ، وستكون الكتابةُ على الشاهد بالعربية، بل ربما وجدت في أيامي الأولى مَن يضع فوق قبري بعض الزهور والصور.

وأقول: ربما وجدتُّ بجواري أحدهم نائمًا من سنين؛ فأبلغه -كاذبًا- سلاماتِ أهلِه عليه، أو لعل نائمًا بعدي

بسنين، يستطيع حمل السلامات إليَّ، أو لعلَّ آخر وافدٍ فينا يحكي لنا كيف تغيرت البلاد، وكيف نسانا الناس.

أقول: لو أننا في «عِز» الحياة نستطيع تجربة سكرات الموت! أو لو أننا في «عز» الموت، نحكي للذين لم يغادروا بعد، عن سكرات الحياة.



(٦)

الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تخيُّله إلى الآن- هو أن أعيش بِلا اعتقادٍ أنتمي إليه ويملؤني. أفكر في هذه الدنيا التي تحاربنا، تصارعنا؛ فنصرعها وتصرعنا، تدوسنا بسنونها حين نخطوها بسنواتِنا. تحكم علينا بالبعد حين نحتاج إلى أقصى درجةٍ من القرب، وتحكم علينا بالفراق حين نتشوَّى شوقًا إلى اللقيا، وتكسرنا حين نستعد للاحتفال بانتصارنا.

أحاول أن أتخيل حياةً خالية من «اللّه».. «اللّه» الذي يرتب أقدارنا مع عطفه، ويبتلينا بقسوةِ الأيام مع لطفه.. «اللّه» الصرخة التي تخرجُ منا بلا إرادةٍ، وجَعًا، أو براءً من الوجع.. «اللّه» الاسم الذي لا نقول معهً شيئًا حين نريد أن نقول كل شيء.. «اللّه» الذي في السماوات، العالم بالصغارِ التائهين في الأرض.

كلما ضاقَت عليَّ الأرض سألتُ نفسي: ماذا لو لم تكن هناك سماء؟ ما الذي كنا سنسعَى إليه أصلًا ما دام سيزول؟

ما اليقين الذي كان سيعوِّضنا عن كل هذا الاضطراب الذي هنا؟ إلى أين كنا سنلجأ؟ إلى مَن؟ إلى ماذا؟ وبأيٍّ حبلٍ كنا سنستمسك؟

كلما سألتُ، وصلتُ إلى الإجابة ذاتِها؛ أننا ما كنا لنطيقَ حرارة الأرضِ لولا البرد المتسلل إلى قلوبنا من السماء، وما كنا لنطيق الدنيا لولا العلا، وما كنا لنستطيع الصراخ، والكتم، والصبر، والعجز، والبكاء؛ لو لم يكن هناك «اللّٰه» يخبرنا بأننا في الفصل الأول فقط من حياتنا، أما بقية الفصول؛ فإنها تنتظرُنا بالأعلى؛ لنقرأها هناك.


نحنُ.. نحن..

(١)

مِن غربة إلى غربة، ومن نصف ملجإ إلى نصف مخبإ، ومنَ وحشة إلى وحدة، ومن أنس مؤقت إلى انتظار دائم، ومن بقايا الأوطان في المنافي، إلى منافٍ بلا أوطان.

كأننا فقدنا في هذه الدنيا جناحًا لن تنبت مكانه ريشة واحدة، لكننا نحاول الاستمرار في طيراننا بالجناح الباقي، والذي تقصقصه الأيامُ أسرع من محاولاتنا في تضميد جراحه.

إننا حين تفارق أجسامُنا الأماكن، يبقى هواؤها عالقا في رئاتنا، وحين تفارق عيوننا الأشخاص، تبقى وجوههم عالقة في رؤوسنا، وحين تفارق ألسنتنا الأسماء، تبقى نداءاتهم عالقةً في حناجرنا.. فتُخلَق في دواخلنا عوالمُ كبيرة، بها شعوبٌ من وجوهٍ نحبها، وأراضٍ من أوطانٍ تسكننا، وفصولٌ كلها ربيعٌ، تؤنسنا على خريف النفوس.

إننا أكوانٌ متحركة بما حمَلت من انفجارات وظواهر، وكراتٌ داخل الكرة، وأوطان فوق اللاأوطان. إننا منشطرون بين أحبابنا، أو إن شطورَ أحبابنا مجموعةٌ فينا.



(٢)

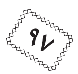
مرتبطونَ بالأماكن أكثر من ساكنيها، وبالأشياء أكثر من مالكيها؛ بالبحر أكثر من الشاطئ، وبالألحان أكثر من الأغاني، وبالعيون أكثر من الوجوه، وبالأصوات أكثر من الكلمات، وبالسكنات أكثر من الحركات.

مرتبطون بكل متفردٍ لم يعلق به سوانا، وساكنون بالزوايا المهجورة التي يَفر منها الجميع بلا انتباه، ونفر نحن إليها بكامل انتباهنا.

كأن كل ما نخاف الاقتراب منه هو أكثر ما نشعر في جواره بالأمان، وكل ما نحاول الفرار منه هو أكثر ما يطمئننا حين نهرب إليه، وكل ما نريد الفكاك من حصاره هو أكثر ما نحب أن يأسرنا ونُسجَن فيه.

كأنَّ كل ما نخشى أن نهوِيَ فيه.. نهواه.





(٣)

نكتشف مع الوقتِ أنَّ قلوبنا لم تتبلد بعد، وأننا ما زلنا نشعر بالجمال، ونستطيع أن نراه في الزوايا حين نبكي في مشهد من فيلم، أو نتنهد في سطر من رواية، أو نضحك والدمع يتّسلل من عيوننا لقراءة قصةٍ، أو نسمع صوت الناي قدَرًا كأنه أول اختبار لحاسة السمع عندنا، أو حين نرتجف من الداخل؛ من الأعصاب التي تحت الجلد، إلى الخارج، حين تعانقنا نسمة هواء كأنها جاءت لنا وحدنا.

بل نكتشف مع الوقتِ أننا صرنا أكثر حساسية؛ فَحين ننفردُ يخرج هذا التراكَم كله دفعة واحدة؛ ليَهدمنا ويتركنا تحت الأنقاض، ثم ليُهَندمنا؛ فينتشلنا من أنياب الموت، في الوقت ذاتِه.

نكتشف أننا نستعين على كوابيس العالم وعالم الكوابيس، بأحلام يقظتنا ويقظة أحلامنا؛ إذ الحلم أرحم بقلوبنا من المنطق، والخيال ألطف بعقولنا من الواقع، والحقيقة تكمن في عيوننا.. لا فيما نرى.



(٤)

إنها الرسالة التي نحكي فيها عن كل شيء حين تكون خانة «المرسَل إليه» فارغة، ثم نتركها فارغة من كل شيء حين نقترب أخيرًا من تسمية «المرسَل إليه».

إنه على ما يبدو البستان الذي نجري فيه ما لم ينبت فيه وردٌ، ثم نقف في أماكننا، نراقبه من بعيدٍ، مع أول تفتحٍ لزهرةٍ منفردةٍ تنبت من العدَم في مركزه.

وما إن نرى ذلك حتى نخبئ الرسائل سريعًا ونكتفي بالمشاهدة، لكنَّ أحدهم حين قرأ رسائلنا تلك، التي لم نسلمها إلى ساعي البريد، قال في ثقةٍ:

«إن الرسائل غير المنشورة بين شطرين، هي أكثر ما يَنشر إلى شطرين».



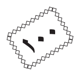
(٥)

ما زلنا نبحث عن الأُنس؛ نراقب العيون لعلنا نجده في إحداها، ونجري نحوه حفاةً إذا ما خطفَ سَنَا برقِه أبصارَنا، ونسهر الليل بطوله عساه يمرُّ قدَرا من جديد، لكننا لا نجده.

وحدنا نحنُ الذين نحنو؛ فنبحث عن الروح في هذا العالم المادي، وعن الدفء في هذا البرد القاسي، وعن اللطف في هذا الزمان السخيف.

وإلى أن نجد الأنس والروح والدفء واللطف؛ نصنع من غربتنا ووحدتنا عكازين، يثبتان أقدامنا على وعرة هذا الطريق.



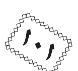


(٦)

إنَّ الكهف الذي يحتمي به المنكوبون، والشاطئ الذي يطفو عنده الغارقون، والملجأ الذي يختبئ فيه الخائفون، والحضن الذي يُعتصر بينه الباكون؛ يشعر أنه وحيدٌ تماما؛ كوحدات يونس في بطون الحوت والبحر والظلام، مع أن اسمه «يونس»؛ لكنه مستوحش.

بابه المفتوح للجميعِ موصَدٌ عليه وحده، وقلبه المتسع لغيره ضيقٌ عليه وحده، وجناحاه اللذان يحملان كل من يريد التحليق عاليًا عاجزان عن حمله وحده، ثم حين تنتهي رحلتهم العالية تبدأ رحلته القاسية في لملمة ريشه الذي تساقط ليضمد جراحه من الطيران.

إنهم الواهبون.. الذين يعطون الشيء الذي يفقدونه، أكثر من هؤلاء الذين يعطون الشيء الذي يملكونه؛ وإنهم لأقدَس منهم سرا وأطيب نفسًا؛ لأنهم كمسكين أعمى يسهر طوال الليل يتحسس الجدران؛ ليُسرج قناديل المساء، أو مثل



قمرٍ تملؤه البثور، ويغرقه الظلام، يسهر طوال الليل يحرق نفسَه في صحن السماء؛ ليملأ على العشاق مساءاتهم أو ليسمح لأحدهم أن يقول لصاحبته:

«إنَّ الضوء الذي ترينه في السماء ليس ضيَّ القمر؛ وإنما ضيُّك».



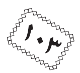
(٧)

أشعر بنا؛ بتلك الهموم التي تثقل كواهلنا وتلك الآلام التي تعتصر أرواحنا، شعور اللاشيء الذي يسكن كل شيء حولنا، شعور الفراغ الممتلئ، وشعور الازدحام بجزيئات الفراغ، شعور التيه بلا وجهة، أو التوجه إلى التيه.

أشعر بهذا الضباب، وذاك السراب الذي نحسبه ماء حتى إذا أتيناه لم نجده شيئًا، فأكملنا المسير بلا بوصلة ولا خارطة.

أشعر بكثرة الجراح التي أثخنتنا، وكسرة الدموع التي صارت على خدودنا براكين تغلي.

أشعر بنفوسنا البريئة التي يصعب عليها أن ترى الأقدار تتقاذفها على أسنَّة رماحها، كطفلة لم تتجاوز الخامسة من عمرها تُدهَس تحت أقدام المارة في سوق المدينة المزدحم، وهي تصرخ وتستغيث ولا أحد يسمعها لأنَّ صوت البائع الذي اختلط بفِصال المشتري، يغطي على صوتها، ولا عزاء للصغار التائهين.



أشعر بالمساكين الذين لم يشأ لهم القدر بقصص كالأفلام التي يَدرس فيها بطلا الحكاية في الصف نفسه، ولا بالدراما التي يكون فيها الباب مقابل الباب، ولا بالروايات التي يلتقي فيها الحبيبان على ناصية الشارع في العاشرة مساءً من كل ليلة.

وإنما كانت لكلٍ منا ملحمةٌ مريرة تختلف عن ألف مرارة غيرها؛ إذ يباعد المنفى بين اثنين، أحب كلٌّ منهما الآخر مِن أول مرةٍ -وآخر مرة- التقيا فيها، أو يسمح السجنُ -في أحسن الأحوال- باللقيا مِن خلف الأسوار ساعةً كل سبعمائة ساعة، أو تَحُول الفجوة بين الأجيالِ مِن التقاء حبيبين من جيل واحد، لأن جمجمةً ما، مِن جيلٍ فات، لا تريد أن تفهم أنَّ للقلوب حرمتها، ولا تريد أن تترك للجيل الذي عليه الدور، أن يتسلم دوره في لعبة الحياة.

إن القصص التي يكتبها المخرجون ويؤديها الممثلون، تَسقط أمام حقيقتنا التي يكتبها لنا الزمان، وإنَّ الصبر حتى اللقيا والظمأ حتى السقيا؛ عزاؤنا فيه أنَّنا نعلم تفاصيله، وأننا أبطال حكاياتنا التي نصنعها من قلب الواقع، لا من وحي الخيال.



ويتساءل المساكين: لماذا لا ينشأ الحب من البداية بيننا ونحن أبناء شارع واحد؟ لماذا نحب مَن تفصل بيننا وبينهم بحار ومدن ومطارات وجوازات سفر؟

والإجابةُ؛ أنَّ الجيل الذي يريد أن يكتب حكايته بنفسه، لا بد أن يدفع ثمن الحبر من دمه أولاً.

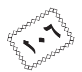


(٨)

بعيدًا جدًّا.. عن الحكايات التي تجذب الأذواق الرخيصة، عن المحبين في الوادي الأدنى من القصص العادية، عن الذين يلتقون بلا أشواق، ويتعانقون بلا أشواك. بعيدًا عن الذين يتواطؤون مع الأقدار فيذهبون معها أينما كانت، ويلخصون الحب في صور لم يدفعوا عناء الوصول إليها. بعيدًا عن كل شيء كان سهلا؛ قريبًا.. مِن الحب الذي لم نعرف عنه إلا صعوبته.

قريبًا جدا من المساكين الذين يدفعون أعمارهم من أجل أن تُسجل أسماؤهم في قوائم العشاق، المبعَدين بمختلِف ألوان المنع والحصار، المحاربين ضد كل شيء مقابل شيئهم الوحيد الباقي.

قريبا جدا من هؤلاء الذين يكتبون قصصهم بمعين عيونهم ويحفظونها في صدورهم خشية التسرب، ويكتمونها بينهم إلى أن تتم فيعلنوها صارخين، أو لا تتم فيموتوا بها؛ لتبقى حية في دواخلهم.



بعيدًا جدا.. عن الزهور المخنوقة في الباقات، المقطوفة من مواطنها، المحبوسة تحت صوبات المشاتل، المعروضة بغزارة في مهرجاناتٍ تشبه أسواق الرقيق.

قريبًا جدا من تلك الزهرة المطلة بانفراد بين صخرتين، في أرضٍ لم تكن تتوقع منها تسللا جميلًا كهذا.

بعيدًا جدا.. عن الحيوانات المخطوفة من بيوتها إلى الأقفاص، المحكوم عليها بالإقامة الجبرية طوال حياتها لأنك تريد أن تراها بجنيه واحد تشتري به حريتها، ترميها من ورائه بما يرمي به السَيدُ عبدَه من طعام، مبعدَةً بلا حساب لقطعانها وما اتصل بها، مرميةً فيما يسمونها بـ«حديقة» حيوان، واسمها «حديقةٌ» لأن الإنسان هو الذي سماها. ربما لو تُرك للحيوانات تسميتها لسمَّوْها «جوانتانامو».

قريبًا جدا من الحيوانات المنطلقة في بلادها وعوالمها بلا تدخل يجلبها إلى عيوننا عنوة، وهي في غنى عن التفاح الملقى بغزارةٍ في أقفاصها، ونحن في غنى عن رؤيتها خلف الأسوار.

بعيدًا جدا.. عن الحب المعلَّب، والشوق المقولب في إطار واحد، المصنوع منه مليون نسخة توزع في الأيام التي يقول فيها الجميع للجميع أنه يحبه، الملقَى في مداخل البنايات، والمغتصَب على أسرَّة التكرار والرتابة.

بعيدًا جدا.. عن كل ما هو موجود بكثرة، ومكرر بابتذال. قريبا جدا من كل ما قد تجده بالكادِ مرة، ولا سبيل إلى تكراره.

بعيدًا جدا عن «أحبك» في أعياد الحب. قريبا جدا من «أحبك» التي تأتي حين يكف الجميع عن الحب. قريبا من «أحبك جدا» حين يزهد المحبون في التعبير عنه.

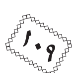


(٩)

من الأسفل، من زاوية أفقية، «من جوة البرواز»؛ حيث أراناَ مستلقين على الأرض، سئِمْنا مِن كل شيء، وسئِمَنا كلُّ شيء. لا نتحرك إلا لنغير وضع الاستلقاء بين الظهر والبطن، متعَبين من أثر الرحلة، ومنهكين أننا وصلنا إلى اللوحة المكتوب عليها «صالة الوصول». وفي الصالة، لم يكن هناك غيرنا، خائري القوى بين عزائم البدايات وهزائم النهايات، ولا شيء آخر.

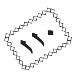
من الأعلى، من مشهد رأسي، من السماء الأولى؛ حيث أرى قومًا خرَّت أجسامهم، لأن قوة الجاذبية كانت أكبر من معادلة الطموح، والبسطُ أصغر مِن المقام؛ فخرج الناتج كسورًا.

لكن لأنَّ الذي يُرى من فَوق ليس كالذي يُرى من الأسفل؛ فإنني رأيتُ القومَ، أرواحهم تجري ونفوسهم تسري وأنفاسهم لم تزل تبث الدفء بين الزوايا والأماكن، باحثةً عن ضالتها، حتى وإن ضلت قليلًا في بحثها. تستعين بقوة



الروح على ضعف المادة، وبإصرار القلبِ على استسلام القالب، وبالصورةِ التي كانت وما زالت -إلى الأبد- خارج حيِّز الالتقاطِ.. على الصورة المرئية داخل البرواز.

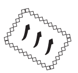




(١٠)

عزاؤنا.. أنَّ الجيل الذي أحب حتى خُذل، وأزهر حتى ذبل، وقاتل حتى قُتِل؛ لن ينجب جيلًا يعذبه بوصايته ويفرق بينه وبين من أحبَّ بفلسفة راعي البقر. لن ينجب جيلًا يضع في عينيه ضيق المادة كلما أراد التحرر منها. لن ينجب جيلًا يثقب له بين الحلم الذي يريده، والحقيقة التي لا تريده.. ثقبًا أوسع من ثقب الأوزون.

جيلنا، الجيل الذي حارب حتى انتصر بعضُه وانكسر بعضُه؛ على كل حالٍ، لن ينجب إلا جيلا حالِما يدفعه إلى الحب دفعا، ويعلمه كيف تلمع عيناه ولِمَن ومتى؛ ثم حين يحدث ذلك سيكون كل شيء جاهزا، ويكون فوق المنابر مِن ذاك الجيل المقاومِ- أئمةٌ يحدثون الناس عن «لا أرى للمتحابين إلا الزواج»، بدلًا من حديثه عن «الصيَّع بتوع الحب».



عزاؤنا أن يخرج من أصلابنا جيلٌ يقتلع الشوكَ من أجسام الصبار، ويغرس الوردَ بين أحضان الأرض، ويحارب من أجل الحب، ويحب من أجل الحرية، ويتحرر من أجل السلام.

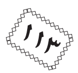


(١١)

نحنُ جيلٌ مختلف تمامًا.. رأينا النجوم في عِز «الضُّهر»، ورأينا الليلَ في عز النهار. عرفنا أن العلماء قد يصلون إلى سطح القمر، والشبانُ يصلون إلى «ورا» الشمس. قرأنا عن الثورات الكاملة في كتب الدراسات، لكننا وحدنا، استطعنا كتابة مصطلح جديدٍ؛ اسمه الـ«نصف» ثورة؛ ربما لأنها تناسبنا تمامًا؛ تناسب ترددنا في كل شيء؛ إقدامنا وإحجامنا، أقدامنا وأحجامنا، أنصاف العلاقات وأنصاف الخطوات، وأنصاف الحيوات.

نحن جيلٌ يسمع كل ما ورد عن الحب، لكنه عاجز أن يصنع منه قصة واحدة، يتحمس للحرب، لكنه يخاف من السلاح، يقرأ التجارب عن كل شيء لكنه لا يستطيع تجربة شيء واحد؛ كأننا في فجوةٍ بين العصور، أو الصفحة المقطوعة من كتاب التاريخ، أو السطر المكشوط في الفهرس.

نحن هنا، عالقون في المنتصف، بين ماض ملكه أجدادنا، ومستقبلٍ يبهمه القائمون على حاضرنا. إنَّنا عطلٌ في الآلة



الكاتبة؛ جعلها تكتب «احتضار» بدلًا من «حضارة».

لكننا ما زلنا نقاوم؛ نجمع الحروف التي أسقطتها لوحات المفاتيح، ونستبدل بالشاشات المشوشةِ عيونَنا الواضحة، ونجمع المسامير الساقطة من الصفحَات السابقة، لندق بها نعوش النهايات في الصفحة الحالية. إننا طفلٌ وُلَد عنوةً رغم تعاطي أمه حبوب منع الحمل، ودائمًا ما تكون الأقدارُ غيرُ المتوقعَةِ صاحبةَ النتائج فائقة التوقعات.

ما زلنا نبحث عن الحب الذي خُذلنا باسمه ألف مرة، ونبحث عن النصر الذي ضاعت باسمه ألف ثورة، ونبحث عن السكنِ الذي انكشفت باسمهِ ألف عورة، ونبحث عن أنفسنا التي تاهت، لكنها تتلمسَ القناديل المائلة على الجدران.




يقولون إنَّ...

(١)

يقولون إنَّ البعيد عن العين بعيدٌ عن القلب؛ لكنني أرى بالجملة خللًا وسطحية في المبنى والمعنى وخلطًا بين المبتدأ والخبر. إذ القلب لا ينبغي له أن يأتي متأخرا ولا في الجزء الثاني من جملة ولا جوابًا لشرط؛ فإن القلبَ هو آلةُ القياس ومعيارُ الحضور.

إن البعيدَ عن القلب بعيدٌ عن العين، وإن القريب من القلب تراهُ في كل الأماكن.. وإن كان تحت الأرض، أو فوق السماء، أو بينك وبينه عشرون بحرا وثمانون مدينة، أو حتى لو كنتَ أعمى. فإن كنتَ لا تُبصر؛ فالحب يُبصِّر.



(٢)

يقولون: «لو كان خيرًا لبقَى»، كأنهم ينفون الخيرية عن الراحلين، ويوزعون صكوك البقاء وأذون الانصراف، وهم لا يعلمون أن خيرية الآخرين ربما تكمن في رحيلهم أصلا. الفكرة تكمن في أنَّ أحدا لم يكن ساكنا والآخر مارًّا؛ وإنما كانا كقطارين في اتجاهين متضادين، التقيا في محطة، وافترقا في أخرى.

الحكايات في نقصانها اكتمالٌ، وبعض النهايات المبكرة تَكتبُ للبدايات الخلود.

بعضُ الحكايات؛ الخيرُ في كونها لم تكتمل، ككل الأشياء الجميلة التي يميزها نقصانها، والتي لو اكتملت لانتهت، لكنها حين نقصت كان المرادُ لها البقاء، كما هي؛ بصَمتِ اللقاء الأول، وسكون اللقاء الثاني، وحرارة اللقاء الأَخير.



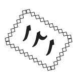
(٣)

يقولون: «حب امتلاك»، وأرى مِن الإجحاف أن تلصق الكلمات بالحب على هوى قائليها، فإن الذي يجعلك لنفسه رغم أنفك لا يستحق إلفك، ولا تستحق همزتُه ألفَك، وإنَّ الحب واللّٰهِ منزَّهٌ عن كل قيد، ومترفِّعٌ عن كل أرض، وحافظٌ لكل عِرض، وما عدا ذلك فإنه «علاقة» تحت أي مسمى، عدا الحب.

مِن أبجديات الحب وبديهيات العلاقات؛ وجود عنصر الحرية، والحرية تقتضي الأمان، والأمان بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ أن يكون شاطئًا لا تخاف أن تُرسي عليه سفنك بما فيها مِن خروق، وأن يكون محلَّ ثقةٍ حين يخونك الجميع، وأن يكون متنفَّس حريةٍ حين يضيق عليك صدرك.

فإن لم يكن الحبُّ حرية وأمانًا، وسكنًا واطمئنانًا، وحفظ كرامةٍ، وكرم محافظة؛ فماذا يكون؟





(٤)

يقولون في العامية المصرية: «الغايب ملوش نايب»؛ أي: مَن يغيب عن الوجود لا نصيب له في الموجود، ومَن لا يحضر كأنه احتُضر، والذي لم يأت يومًا كأنه لم يأتِ أي يوم. وهنا نجد سطحية في المبنى وظَلما في المعنى إذ يتعَامل المستشهدُ بالجملة، مع المحسوس بمنطق الملموس، ويتحدث عن الروح بفلسفة المادة.

وإنما علينا أن نقول: إنَّ الغائب له النصيب وحده؛ مِن العقل الذي يشغله، والفؤاد الذي هو آخره وأوَّلُه، ومِن العَين التي يملؤها، والروح التي يكلؤها.

فلا أحد في الحاضرين يشغل مكان الغائب، ولا أحد من الموجودين أقرب من ذاك البعيد، فإنَّ مثلَه كمثل فرح أتت العروس إليه، وتزاحم المهنئون فيه، لكن غاب عنه العرِّيس. هل يكون للفرح معنى؟ أو للزفة مكان؟ وهل يشغَل مكان العريس أحد؟ أو للعروس معنى في غيابه؟ أو يُعقد القَران في تأخره؟ كلا؛ فلا نقول: «الغايب ملوش نايب»؛ وإنما نقول: «الغايب في القلب دايب».

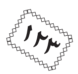


(٥)

يقولون: «الحدود تراب»؛ وهو تعبيرٌ يعدم فكرة الأرض، وألوان العلَم، وأغنية الوطن، وإنهم مهما ردَّدوا من شعاراتٍ تقول بأن كل أرضٍ يُرفع فيها الأذان هي وطن، وكل قبةٍ تحتها وطن، فلا أقبلُ قولهم أبدًا.

ببساطة؛ لأن صوت المؤذن في بلدي به نبرة الوطن الجريح، مختلفًا عن صوت المؤذن في الوطن المستريح. بحنجرة مؤذننا كل الخناجر التي طُعن بها الوطن، وبعروق رقبته كل العروق التي تفجر منها الدم من أجل الوطن، وبين يديه وجهٌ يبكي وهو يؤذن الأذانَ كأنه ينفض الغبار عن القباب والمآذن.

ووطني: «مصر».. الاسم الذي لا بد من ذكره كما هو بين علامتي تنصيص؛ لأنه فوق الكلام وآداب اللغة وعلامات الترقيم. اللغة نفسها منعت صرفَه؛ فكان جامدًا ثابتًا لا يتقلب حسب مواقع الإعراب، وكأنه ينزل بين الكلمات بشروطه، ويسير بين الجمَل مرفوع الرأس منصوب الهامة.



في الغربة، حين نتخيل مصر التي لم يسلُ القلب عنها، ولم يأس جرحها الزمان المؤسِّي؛ نراها مضيئةً في أكرم بقعةٍ من الذاكرة، ملوّنةً لا رمادية كما تقول الصور من الأعلى؛ لأن الصور التي في مخيلاتنا كلها التُقطت من الأسفل.

نراها بين مئذنتي الحسين والأزهر، بين أسدي قصر النيل، بين فنار الإسكندرية وبرج القاهرة، بين مثلث الدلتا، وفي حضن الجنوب، على جدران المعابد وبيوت النوبة، نراها علمًا يداعبه هواء سيناء، وقلمًا في أيادي الخالدين.

نسمعها في المنشاوي صباحًا وأم كلثوم مساءً، في عمرو بن العاص بالجمعة، وعلى المقاهي من الجمعة إلى الجمعة، في «اسلمي يا مصر إنني الفدا».. -النشيد الوطني كان من كلمات الرافعي. تخيلنا نحيي الوطن بلسان الرافعي كل صباح-. نسمعها في الإذاعة وحشرجة الراديو، في «شهدوني شهدنالك» بين أطفال الحارات مساءات الخميس، وفي ضحكات الأسطوات، وفي أصوات رشفهم الشاي كأنهم يقبلون الأكواب.

نشمها في لحظة دخول الإسكندرية، في شوارع رمسيس، حتى في الرائحة «إياها» تحت الكباري، والتي تقول إن كل شيء هنا عفوي، نشمها في أطباق الكشري، وعلى عربات

الفول بالزيت الحار والطعمية بسمسم، وأرغفة الخبز، وطوابير الغاز.

نرى «مصر» كما يرى كلٌّ حبيبَه بعينين جميلتين، كلما ابتعد عن مجال رؤيته؛ نراها زرقاء على الساحل، وصفراء على الحدود، وخضراء في الشمال، وسمراء في الجنوب، نراها كأننا لم نرَ قبلها شيئًا، وكأننا منذ فارقناها فرَّقتنا؛ فلم نرَ بعدها شيئًا؛ كأنها حاسة البصر، ونبضة الفؤاد، وتنهيدة الصدر، وعقدة اللسان.

«مصر» التي منها يبدأ الحب وبها ينتهي؛ حيث انعكاس حب المرء لنفسه، وحب النفس للأرض، وحب الأرض للسماء.



(٦)

يقولون إنَّ ما تبحث عنه يبحث عنك، وإنى لأرى بها سطحيةً لا تنفي بساطتها، وقصورًا لا ينفي براءتها، ولسانا أفلاطونيًّا حالمًا لا يعرف صاحبُه التجارب ولم يرَ الحياةَ بعينين حقيقيتين؛ وإنما كمَن يصف جمال الشمسِ، وهو يرتدي نظارةً تقيه سخونتها.

فنقول: إنَّ ما تبحث عنه لا يبحث عنك، وإنما ما يبحث عنك تفر منه، وما تبحث عنه يفر منك، وإنك وما تبحثُ عنه لا تلتقيان إلا إذا بحث كلٌّ منكما عن أصول الأشياء لا عن انعكاساتها؛ عن الشمس لا عن أشعتها، عن الارتواء لا عن الماء، عن الصوت لا عن الصدى، عن الحب لا عن المحبوب؛ فبالضوءِ تُرى الأشياء كأنه يخلقها، وبالضوء تَرى عيناك ما خُلق؛ كأن الضوء لم يخلق ما تراه، وإنما خلق عينيك.

فإنَّ الباحث عن الشمسِ سيتيه بالليل، والباحث عن القمر سيتيه بالنهار، لكن الباحث عن الضوءِ وحده هو الذي سيصل لعين الحقيقة؛ بالنهار والليل.



(٧)

يقولون: «وحشتني»؛ مُؤَوَّلةً من أوحَشتني؛ أي صرتُ مِن بَعدك، أو في بُعدِك، مسافرًا بلا زاد، وسكنًا بلا أهل، وأرضا بلا صاحب؛ وإنكَ حين غبتَ استوحشتُ وشعرتُ بالوحدة، فجعلني غيابُك وحشيًّا؛ كأنني لا أكون أليفا ولا مستأنَسًا إلا بك، ولا مستأنِسًا إلا بك.

سألَتني ذات يوم صديقةٌ أجنبية عن كلمة «وحشتني» التي سمعتها في أغنيةٍ عربية، ولماذا هي لفظةٌ مختلفة عما تعلمَته بكلمة «اشتقت إليك»، فأخبرتُها بأننا في العاميّة نستخدمها للتعبير عن الاشتياق؛ لكن ترجمتها الحرفية تقول معاني أعمق وأوسع وأجمل؛ كأنها تفصل المجمل، كأنها رواية في ستة أحرف، أو قصيدة من شطرٍ واحدٍ مكون من كلمةٍ واحدة.

وإننا حين نقول «وحشتني» بدلًا من «أوحشتني» فلأننا ربما مع الوقت أسقطنا الألِف تماشيًا مع الوحشة التي تُسقط

الإلف، أو لأن الألِف تشبه حاجزًا يمنعنا عن الحبيب فضلًا على حواجز المكَان والزمان الموجودة أصلًا؛ فشقَّ علينا أن نوجَع بالكلمة التي نعبر بها أصلا عن الوجع، وأن تصيبنا الأشواكُ حين نريد شكاية الأشواق، وكأننا يشق علينا أن نصعد إلى الألف ثم نهبط إلى الواو؛ إذ نستعجل الحبيب البعيدَ فنضمه في الواو.. التي هي عبارة عن ضمة كبيرة.



(٨)

يقولون في اللغة: «سكِّن تسلم»؛ أي إن الكلمة التي لا تجيد ضبط آخرها؛ أعطها السكون المضمون، بدلًا من حركة خاطئة تسلبها حقها في الجملة أو تغير حقيقتها في الإعرابً. فالمخرَج الوحيد الآمن هو أن تسكِّن الأواخر، وتسكت بعد كل كلمة، فقط لتسلم الكلمة منك، ولتسلم أنت من مظالم الكلمات.

سَكِّن الجراح والمجروحين تسلم. قد يكون اتخاذ أي حركة في أي اتجاه يزيد الألم على المتألم ولا يساعد الجرح على الالتئام؛ بل قد تكون حركتك حتى صحيحة، لكنهم لم يكونوا يحتاجون منك أن تعلن الطوارئ وتنادي الإغاثة وترفع حالة التأهب؛ فنصف الجرحى يموتون فزعًا من صوت سارينة الإسعاف.

هم فقط يريدونك أن تسكِّنهم.. فتسكُنهم.. فتسلم.. ويسلموا.



(٩)

يقُلن: «الاهتمام مابيتطلبش»، وقولهن صحيحٌ لأن النفَس لا يُطلَب، ونبض القلب لا يطلب، وجريان الدم لا يطلب، وعمل المخ لا يطلب، وإحساس الأعصاب لا يطلب.

فإن الاهتمام مِن مسلمات الوصال، وبديهيات القرب، وأبجديات الحب، ودلالات الوجود.

وإن المحبوب هو مَن حين تُظلم يكون لك ضَيا، وحين تظمأ يكون لك ريا، وحين تغفو يكون رؤياك، وحين تصحو يكون مرآتك، فإنَّ المحب مَن روى، فارتوى، فاحتوى، فأقام بلا نوى.

وهذا هو عين الاهتمام، وهذا الاهتمام هو عين الحب، وعين الحب أن نجد ما نحتاج إليه، قبل أن نعلن عن الاحتياج.



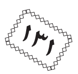
(١٠)

يقولون: «بصَلة الحبيب عند المحب خروف»؛ وهي، بلا تعقيد، ملخصُ الوصال وأخلص الخصال. مثلٌ تناقله الأجداد الذين كانوا وما زالوا منذ ستين عامًا، يرون ألسنة زوجاتهم «بتنقط عسل»، وضحكاتهنَّ «قمر ١٤»، وعيونهن «عيون الغزال».

إنها شعار الذين يرون في كلمات محبيهم غنى عن أشعار ابن زيدون، ولو كانت بلا وزن أو قافية، ويقرؤون في رسائلهم كفايةً عن الرافعي وكافكا، ويسمعون في أصواتهم ما يصمُّ آذانهم عمن سواهم، ويقرؤون في أرواحهم رواياتٍ شكلت أحداثَها أحلامُ اليقظة، ولا أبطال فيها غيرهم.

إنهم المحبون حقًّا والعاشقون صدقًا الذين يجدون في «بصَلة الحبيب خروفا»، وفي صمته حروفا، وفي وجوده الواحد ألوفًا؛ الذين يغنيهم واحدهم عن الجميع، ويكفيهم منه أن يخبرهم كل ليلة: «أنا معك. لستَ وحدك»؛ فيسمعونها: «أنا وحدي معك».





(١١)

يقولون: «إنسان من النسيان»؛ لكنني ربما لم أرها يوما كذلك إلا عندما أنسى حضور موعدٍ، أو تحضير حقيبتي، أو إجابة أحدهم، أو أن اللبن يفور.

لم أومن بها أبدا بخصوص وجوه الأشخاص؛ فإنني لا أنسى وإن حاولتُ النسيان وإنما أنسى حتى أن أحاول، كأنه لا يزيد الذكرى وضوحًا إلا محاولاتُ النسيان.

لا أراها إلا «إنسان من الأُنس»؛ مَن أنِسْنا به ولو ساعةً لا ننساه إلى قيام الساعة، ومن آنَسْنا من جانبه نارًا في الليالي الباردة، لا تبرد نيران أشواقنا إليه، ومن أنسانا مآسينا في سِنة نوم واحدة حين بات طيفه معنا، لا يخونُه طيفنا، ولا يتركه فيَّ وحشته بلا مؤنس.

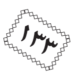
إن الإنسان من الأنس، ولو كان أصلها غير ذلك ففي النهاية كلها تأويلاتُ ألسنة، وأنا لا أومن إلا بتأويل الفؤاد.

وفي النهايةِ، إذا أردتَّ استفتاء قلبك في أي الأصلين أقرب إلى الصواب فاسأل نفسك:



كم إنسانًا يستطيع أن يعيش دون أن ينسى؟
وكم إنسانًا يستطيع أن يعيش دون أن يأنس؟
وهل الإنسانُ ينسى مؤنسَه؟ أم الأنسُ أبقى من النسيان.





(١٢)

يقولون: «أحبب حبيبك هونًا ما»، وفي الحقيقة لم أومِن بها يومًا، بل لا أتخيل اجتماع «أحبب» و«هونًا ما» في جمَلة واحدة؛ كأنك تخبر أحدهم أن ينزلِ البحر ولا يبتل، أو أن يجري ولا يتعرق، أو أن يرى الجمالَ ولا ينجذب إلى تفاصيله.

إن الحب شعورٌ كاملٌ؛ لا يتحكم فيه صاحبه، وإنما هو المتحكم بصاحبه، وليس للمحب بأن يوقف اندفاعه، أو يقلل سرعته، أو يهدئ حماسه؛ لأنها ليست عملية مادية.

فإننا نحب بالقلب المختفي والعقل الباطن؛ وليس بأيدينا مثلا أن نخفض نسبة حبنا أو أن نرفعها متى شئنا، ومتى ادعى أحدهم أنه تمكن من هذا؛ فليعلم أنه لم يحبب أصلا؛ لأن الحب هو ما يملك القلب فينتشر فيه كله من نظرة واحدة، ولا يملك صاحبه من أمره شيئًا.

نحن قومٌ إذا وقعنا في الحب وقعنا بِكُلنا، ولا يتبقى منا لنا فينا جزء واحد؛ «فهونًا عليك؛ وأحبِب حبيبك».



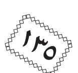
(١٣)

يقولون: «إيه رماك على المُر؟ قال: الأَمَرّ منه»، وفي الإجابة بعدٌ عن الدقة، وجهلُ النفس بنفسها، وتيهٌ غير محسوس، وتعليلٌ يشقي المسؤول، وعلةٌ لا تشفي السائل.

فلا أحدَ «يرمي نفسه» من الجبل إلى الهضبة، ولا من البركان إلى الحمم، ولا من السيف إلى الخنجر، ولا من المحيط إلى البحر، ولا من الدهس تحت قطار إلى الدهس تحت سيارة.

فإن المُر بالنسبة لمتجرِّعه لا يُقاس عليه؛ وإنما هو قطعةٌ واحدة لا مفاضَلةَ فيها بين مرتبتين؛ هو درجةٌ قُصوى من الألم، كالمصاب بوجع في ضرسه حين يعيش نفس الدرجة من الألم إن أصيب بطَلقة في رأسه؛ فيقول في كلتا الحالتين مجازًا ثم حقيقةً: «أشعر أنني مضروب برصاصة».

من جهة أخرى، فإنَّ المرء حين «يرمي نفسه» على مُرٍّ يختاره؛ فلأنَّ هناك حلوًا على الشاطئ، أو لأن هناك شاطئًا أصلا. يتحمل الشوق لأن هناك لقيا، ويتحمل الفراغ لأن



بعده امتلاء، ويتحول الظمأ لأنه سيُروى، ويتحمل الصيام لأن هناك عيدا، ويتحمل المر.. لأنه سينتهي.

فالأَوْلى والأدقُّ حين يُسأل: «إيه رماك على المُر؟».. أن يجيب: «الأحلى منه».



(١٤)

يقولون: «فاتك القطار»، وأرى أن القطار لا يفوت أحدا؛ فربما المار من المحطة عند مرور قطار الخامسة، كان على موعد مع طائَرة في العاشرة، أو لم يرد الركوب الآن، أو لم يعجبه شكل القطار، أو لأنه يريد مقعدا في الدرجة الأولى لا الثالثة، أو لأن العربات كانت مزدحمة مبتذلة وهو لا يحب الزحام.

أو ربما لأنه اشترى تذكرتين؛ إحداهما له والأخرى لرفيق سفر لا يعرفه لكنه ينتظره، أو لأنه لا يستطيع السفر وحده، أو لاً يحب أن يقطع الطريق منفردا ولا أن يجاوره في المقعد شخصٌ ليس من اختياره، أو لأن حقائبه أثقل من المسموح به لراكب واحد، أو لأن الرحلة طويلة والمحطة ليس بها إلا نوع واحد من التذاكر؛ «ذهاب بلا عودة».

وعليه؛ فإنَّ القطار لا يفوت أحدا، لكنه يدهس الكثيرين حين يتدَافعون للحاق به، ثم يدركون وهم في جنازاتهم، أن قطارهم الحقيقي، كان في الاتجاه المعاكس.



(١٥)

يقولون إن الحبَّ الذي يبحثُ عنه الحالمونَ لن يجدوه على هذه الأرضِ، وإنما في خيالهم الذي لا يفارقهم ولا يفارقونه.

ونقول لهم مِن هنا: مِن مدنِ الحالمين الذين قاوموا حتى وجدوا، أنهم التَقوا بِمن رواهم بَعد الظمإ شهدًا، ولَقَّاهُم بعد الوحشة أنسًا، وأودعهم بعد التيه سكنًا، وجاءهم بوجائهم، وملأهم بملإٍ يستغنونَ في حضرتِه عَن ملء الأرَض ملوكا وملائكة.

نقول لهم: إن الذين سعوا وصلوا، وكل الغريبين التقوا قدَرًا بغرباء أمثالهم، نفوا عنهم منافيهم، وكُل العرجى التقوا بعُكازات كانت مركونةً على الجدرانِ بلا صاحب، وكل العكازاتٍ التي تحتاج إلى عرجي يرتكنون إليها لقيَت من يصافحهاَ ويأخذها تحت جناحَيه.

يقولون: لن تصلوا، ونقول: كلُّ ساعٍ سيسعد، وكل مقطوعٍ من شجرةٍ سيجد ذاتَ يومٍ جنةً ينتميً أصلًا إليها.

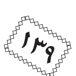


(١٦)

يقولون: «لأجل عين تكرم ألف عين»، وهي على قدر بساطتها معقدة، وعلى قدر إيجازها معجزة، وعلى قدر اختصارها موجزة. تُلخص الحب في التضحية، وترتقي من حب الحبيب إلى حب كل ما يحبه الحبيب.

بمعنى أننا حين نحب أحدَهم: نحب حياتَه بتفاصيلها، فنحب البائع الطيب أسفل بنايته، والجارة التي تدعو له، والصديق الذي يرافقه ويرفق به. نحب اللون الأصفر أو الأزرق، والشعر المجعد، والوجه القمحي، والعينين السوداوين، والصوت الدافئ، وفنجان القهوة، وشعاع الشمس الساقطِ حيث يجلس. نحب الطريق التي يأنس بها، و«طوب الأرض» الذي يمشي عليه، وكل شيءٍ لا نعرفه وليس مما يروق لنا؛ لكننا أحببناه حين أَحَبه.

فكأنهم حين يقولون: «لأجل عين تكرم ألف عين»؛ تقول أنت: «بل لأجل عين مستعد لأفقد عينيَّ»، أو «لأجل عينٍ؛



تألف عيناي ألفَ عين لا تعرفها». فكأننا حين نحب عينًا؛ نحب معها نظراتها، فنحب جميع ما تبصره.

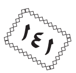


(١٧)

يقولون: «الحب أعمى»؛ أي إن المحب لا يرى ما هو مقدِمٌ عليه، فيقع فيه دون أن يشعر، ثم ينقادُ إليه وهو لا يسمع أي تنبيه، ويُساق إلى المحبوب كأنه مخدَّرٌ لا يعرف رأسه من قدميه، والحقيقة أن هذا ليس حبًّا، وإنما مجرد انبهار أو إعجاب؛ فما الحب؟

الحب مُبصِر، وعين الحبيب «ستة على ستة»، ويرى في محبوبه ما لا يراه غيره، ويعرف من تفاصيله ما توارى خلف التمثيل، ورؤيته واضحة تماما كمَن يرى النملة على بُعد سنة ضوئية، وقوةُ نظرِه آتيةٌ من شدة حبه؛ كعالمٍ مجنونٍ بالكون فدرسَه من الذرة إلى المجرة، وهو يعلم أينَ الثقب الأسود، ومتى لحظات الانفجار، وكيف تختفي الشمس ويحل الظلام.

أهم ما في الحب أن يكون مبصرًا أصلًا، ودلالة الحب أن يتغاضى المبصر؛ فيرى قمره أبيضَ رغم أنه الوحيد الذي



يستطيع رؤية هالاته السوداء، ويرى سطحه ناعمًا رغم أنه الوحيد الذي يستطيع رؤية نتوءاته والتواءاته، ويرى السماء صافيةً رغم أنه الوحيد الذي يستطيع رؤيتها ملبدة بالغيوم. ومتى أدرك المحبوب أن محبه يراه جميلًا رغم زلَّاته، انكشف له متجردا من كل أدوات التجميل، وهو مطمئنٌّ أن الأداة الأقوى.. في عين حبيبه.

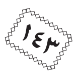
فإنَّ تجاوز الأعمى حين لا يبصر؛ يفوقه تجاوز المبصر حين يتعامى.



(١٨)

يقولون: «ما الحب إلا للحبيب الأول»؛ لكنني أرى أنه على قدر ما تكون للخيارات الأولى خصوصيتها؛ فإن للأقدار الأخيرة قدسيتها، بمعنى أنَّ الحب قد لا يكون للحبيب الأول، والوفاء ليس للاتجاه الأول، والراحة ليست في الهدف الأول، والحلاوة ليس في اللقاء الأول، والجمال ليس في النظرة الأولى.

الجمال كله قد يكمن في الحضن الأخير، والذي استقررت فيه بعد معارك -مجرد الكلمة تبكيني الآن وأنا أكتبها- كثيرة، والراحة كلها قد تكمن في المشوار الأخير الذي وجدت فيه -بغير قصدٍ- ما يئستَ من البحث عنه، والحب كله قد يكمن في الروح الأخيرة التي احتوتك بعد طول جفاء، والحنان كله قد يكمن في النظرة الأخيرة التي طيبَّت جراحك بعد كل العيون التي أتعبتك.



فإنْ كان للبدايات الحنين والدموع؛ فللنهايات الارتماء بين الضلوع؛ حيث يخبرك أحدُهم، الذي وجدته ووجدك قدرًا، أنك «أخيرًا» وصلت.

أو كما يقولون: أجملُ ما في الحرب نهايتُها.

ونهايةُ الحربِ السلامُ.



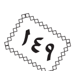

في الحقيقة..

(١)

في الحقيقةِ.. لا حاجة إلى الكلمات المنمقة، أو السطور الطويلة، أو دواوين الشعر، أو روايات الشوق، أو ملاحم اللقيا، أو معلَّقات الغزَل، حتى تثبت لِمَن تحبه أنك تحبه.

الأمرُ بعيدٌ عن مدى القدرة على التعبير؛ لأن البكم كذلك يحبون، وبعيدٌ عن مدى القدرة على الاستماع؛ لأن الصم كذلك يحبون، وبعيدٌ عن مدى القدرة على الرؤية؛ لأن الكفيفين كذلك يحبون.

الأمر كله بما وقر في القلب؛ أن يصبح الصدرُ شفَّافًا إلى حد أن يرى فيه إيمانك به، ويشعر في روحك أنها تحيط به وتسكن فيه، ويحس منك الأنسَ والاستئناس، ويخبرك -دون أن يتكلم- أنه محتاجٌ إليك، وضعيفٌ لديك، وذائبٌ بين يديك.



كل اثنين يجعلان تربة وصالهما نَدِيَّة؛ يرشفان رحيق زهورهما كل صباح، وكل اثنين يجعلان تربة وصالهما نِدِّيَّة؛ يتجرعان مرارة الصبار كل مساء، وبين الضحى والغروب؛ أقوامٌ في الحب تذوب، وأقوامٌ عن الحب تتوب.



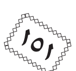
(٢)

الجمال قيمةٌ لا تُعرَّف؛ الأصلُ فيه أن يكون محسوسًا لا مفهومًا، ومتفردًا لا مكررا، ومجردًا لا مركبا.

أنا لم أرها جميلةً لأن زرقة العينين هي مقياس الجمال؛ وإنما كانا سوداوين، ولم أرها جميلةً لأنَّ الشعر الأصفر هو الجمال؛ كان أسودا، ولم أرها جميلةً لأنَّ خفّة الاسم لها طرب؛ فقد كان ثقيل النطق.. إلا في حنجرتي.

الجمالات دائمًا ما تكمن في التفاصيل الصغيرة، والمعاني المختصرة في أقل حيزٍ من الفراغ؛ فتقطع إلى قلوب المتذوقين أقصرَ مسافةٍ، وأنسبَ طريقٍ لا يدركه إلا مجيدو الهربِ من كدرة النفوسِ إلى صفاءِ الأرواح، ومن ضيق الصدورِ إلى سعة الأفئدة.

المسافات لا تتناسب بأي حالٍ مع مِقدار القربُ الحقيقي؛ كما أن قداسة العلاقاتِ بين كل اثنين في دائرةٍ ما- مكرَّمةٌ عن كونها علاقة هندسية نحسب فيها المسافة بين طاولتين.



إن الحب لا يُعرف بالكلمات، والجمال لا يُرى بالعيون كلها؛ وإنما يُشعَر به كحالة في نفسك تجاه الناس والأشياء؛ كأنك الشمسُ، حولك ألفُ جسم معتم أقل من عتمة القمر، خالٍ من البثور والنتوءات؛ لكنكَ اخترتَ الأكثر ظلمة وعتمةً، فأضأته، ثم أقبلت عليه كأنك لا تعرفه، وهمست في أذنه: «من أين لك هذا الجمال؟!».

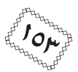


(٣)

من المعلوم بالضرورة أنَّ الأصلَ في الحبِّ الاهتمامُ بين الطرفين؛ الذكر والأنثى يحتاجانه، يحتاج كل منهما إلى أن يسمع من الآخر: «أنا أفهمك، وأشعر بك، وأحفظ تفاصيلك»، ثم يصدق كلامه بالعمل؛ فيجعل من عقله مفكِّرة لصاحبه، ومن قلبه دفترًا ليومياته، ومن روحه المداد والمدد.

وأول الاهتمام الانبهار! أن يشعر منك محبوبك أنه أجمل مَن في الكون؛ أنه أذكاهم وأزكاهم، وأنه أول الخليقة وآخرها، وأن كل الذين عبروا في المنتصف لا يعنون لك من دونه شيئًا؛ وإنما كان مرورهم من سنن الكون لا أكثر.

أن تجعل من عينيك مرآة صادقة تحفظ صورته في أجمل حُلله، فكلما نظر إلى المرآة وجدها؛ بشعره المسترسل، وعينيه الواسعتين، وروحه النورس، ولسانه النهر، وعطره القرنفل، ووجهه الناعم؛ حتى وإن جاوز السبعين.



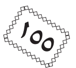
واعلم أنه؛ ليس من الرزانة في شيءٍ أن تكون عاقلًا هادئًا في كون يخصك وحدك. ليس من العقلانية أن تجلس حيث يجب عليك الرقص، ولا أن تجفو في ساعات التدلل، ولا أن تتريث في مواضع الجنون.

المرأة أمٌّ وإن كانت لم تتمم العقد الثاني من عمرها، والرجل طفلها وإن ابيضَّ شعره وتساقطت أسنانه وانعقد لسانه، ومتى حاول أحدُهم السيرَ عكسَ ذلك؛ فإنه محبٌّ مع إيقاف التنفيذ؛ فليس كلُّ محب عارفًا بالحب، تماما مثلما نحن جميعًا بنو آدم.. لكن بعضنا يستبيح دماء آدم في الطرقات.

(٤)

ولا أتصور أن يتعامل «رجلٌ» مع امرأةٍ بقسوة، أو أن يقلل من شأنها أمام غيرها في حضورها أو غيابها، أو أن يتسبب في بكائها أو أن يتركها تبكي، أو أن يُضيق عليها ما فيه سعة لنفسها، أو أن يُزهق روحها بعُقَد نقصه، أو أن يرهق روحها بعَقّدٍ نكَثه، أو أن يعاملها أمام الناس أو الأهل أو نفسه كمواطنٍ من الدرجة الثانية، أو أن يبخل بودِّه واهتمامه ليرضي كبره وكبريائه؛ ولا أفهم هل يبقى للرجل من كبريائه شيئًا إن أهان جزءًا منه؟ فإنَّ الرجولة قطعة مركبة واحدة، إن فُقد منها جزءٌ صارت بلا معنى.

لا أكتب ليُتعجب من الكلام كأنه من وحي الخيال، ولا ليحنَّ الناسُ إلى زمن «الرجال»، ولا ليُتصور المعلوم بالضرورة مجهولًا بفعل عوامل الزمن؛ وإنما لبيانِ أنَّ الفطرة تتفق مع الرجولة، وأنَّ البعيدين عنها بعيدون عن أنفسهم التي خُلقت في أحسن تقويم.



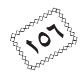
وإنَّ موجة الانبهار بما يفعله المشهور فلان مع زوجته- لا تعيب سوانا؛ لأن سيداتنا رأينَ البديهيات محالات، والواجباتِ أفضالًا، وحقوقهنَّ أحلامًا؛ مع أنَّ الرَقيَّ أولى بنًا ونحن أولَى به؛ فواللّٰه إنّ الدين والفطرة والعرف لا يقولون غير ذلك، وهل هناك أرقى من دين يصوِّر المرأة أنها سكنٌ يأوي، ولباسٌ يستر؟ وهل هناك أمةٌ مضى عليها زمانٌ يُعاب فيه الرجل إن كان لا يجيد نظم شعر الغزل لسيدته- غير أمتنا؟

ثم هل هناك دينٌ له من فقهائه الأصليين مَن يُفتي أنَّ الجمع والقصر في الصلاة رخصة للمسافر، إلا في أرض كانت فيها زوجته؟ فهي بمثابة نفي للسفر، وإبطال للغربةً، وتلخيص للوطن!

وإنَّ أدباء العصور كلها لو بحثوا عن لفظة منصِفة موجزة معجزة- ما وجدوا أبلغ من رسول اللّٰه حين قالً: «القوارير»؛ أي: غالًية الثمن، عالية المكان، راقية المكانة، رفيعة الذوق، حسنة المقام، صافية القلب، مؤنسة الديار، خفيفة الروح، غنية الجمال.. لكنها على ذلك، أو لأنها كذلك، تكون سهلة الكسر.

وعليه؛ فأن تُكرمها ليس من كرمك، وإنما من كرامتك؛ أما كرمكَ أنت فيأَتي فيما بعد عند زيادة إكرامك إياها.



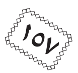


(٥)

وهناك على الجانب الآخر، لا أتخيل أنثى لا تحتوي روحًا وُهبت لها فوق روحها، بأبٍ رزقت به على كبَر، وابن رزقت به على صغَر، برفيقٍ ترى فيه صغرها وكبرها معًا، سذاجتها ووجاهتها معًا، براءتها ومروءتها معًا.

فإنه لا شعور أحلى عند الرجل مِن مكانٍ وزمانٍ يستعيد فيهما طفولته؛ المكان عيني حبيبته، والزمانُ لحظةُ النظر إليهما. فلا يرى نفسه كما يراها في المرآة، وإنما يراها في المرأة التي لا ترى في الدنيا وجهًا غير وجهه.

فكَما الأنثى أمٌّ بطبيعتها حتى وإن كانت في الخامسة من عمرها؛ فالرجل طفلٌ بطبيعته حتى وإن جاوز السبعين؛ يميل إلى حوائه كما تميل هي إلى احتوائه، وإلى ضمتها كما تميل إلى ضمه، وقبل ذلك كله يترقب أن تنبهر به؛ كأنه الرجل الأقوى في العالم، حتى وإن كان ذراعاه كساقَي غراب، وكأنه الرجل الأوسم في العالم، حتى وإن كان متواضع الجمال، وكأنه أمير الشعراء، حتى وإن كان لا يعرف الوزن من القافية.



أجل. هو رجل، بإمكانه أن يخوض لأجلك حربا؛ لكنه في الوقت ذاته حين يستظل بجناحكِ، يصير مجرد طفلٍ أكثر من الأطفال أنفسهم، والفرق الوحيد بينه وبينهم- أنّ عمره أكبر.



(٦)

وإن العلاقةَ بين الرجل والمرأة ليست بهذا التعقيد ولا بتلك البساطة؛ هي شيءٌ لا تختزله الكلمات، ولا يستطيع تعريفه أطباء النفس؛ الأمر جائزٌ عند علماء الأحياء فقط، أن يصنفوهما من حيث الذكورة والأنوثة.

ببساطة.. هي ترى بعينيه؛ فيبصر بقلبها؛ فتدرك عينُها ويدرك قلبُه أن شيئًا ما بداخل كل منهما- ثبت ولا قابلية لانتزاعه، لا بثورةِ شعور، ولا بمرور وقت، ولا بتغير حال.

تلك الطفولة تحتاج إلى أن تُرضيَها تمامًا؛ بقُبلة على الرأس، أو بِمسحة على الخدين، أو بشيءٍ أقرب من كل شيء؛ أنسب إلى كل أحد من قبَل كل أحد، وأرضى للنفس من إحضار القمر على طبق السماء، وأثمن على الروحِ من تقديم العينين في صَدفَتين من ياقوت الجنة؛ إنه الحضَن.. حيث ينْدَى جفاف الضلوع، وتبرأ العيون من الدموع، وتطمئنُّ الغيورة، ويسكن المضطرب، في ظل روحين، النقصُ في إحداهما مستورٌ بالأخرى.

خُلق الإنسانُ من وهنٍ عجولًا هلوعًا. والوهنُ نقصٌ في القوة، والعجَلة نقص في التريث، والهلَع نقص في الثبات؛ فالإنسانُ بطبعه منقوص، عارٍ من الكمالِ، في حالة احتياجٍ إلى من يُكمل نَقصَه ويقوي ضعفه.

فجعل الله الأنفسَ بعضها لبعضٍ لباسًا تكمل واحدتها نقائصَ أختها؛ ليربت على كتفِ المحبوب بيدِ المحب، ويسقيٍ حلاوةَ الأول مرارةَ الثاني، فيمزجهما مُركبا واحدًا مكتملا؛ يختلُّ متى انفصل، ويشتدُّ متى اتصل؛ كنصفين لم يذق أحدهما الكمال إلا بمجيء صاحبه.. فما استغنى إلا ناقصٌ، وما احتاج إلا مكتمِل.



(٧)

لا الرجل على الإطلاق سيد البيت، ولا المرأة على الإطلاقِ عمود الأسرة، ولا فاصلَ في ما هو متغير إلا كلامُ اللّٰه الثابت: «هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن»؛ أما عدا ذلك فهو تطرف بين أقصى الذكورية وأقصى الأنثوية، وما جعل اللّٰه بين الجنسين حين خلقهما كلَّ تلك الفروقات التي صنعها الخلقُ أنفسُهم.

الرجل سكن، والمرأة وطن. الرجل حصن، والمرأة حضن.. وربما حين نهتم بالمعنى لا بالمبنى، وبالجوهر لا بالمظهر، وبالمشاركة لا بالمغالبة، وبالاحتواء لا بالانزواء، وبالقسمة لا بالضرب؛ حينها فقط قد نرى مجتمعا خاليًا من أنصاف الرجال وأنصاف النساء.



(٨)

الماء مسمَّى عام لمادة سائلة تتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين. إن وُضعَ في مجرى طويلٍ وعميقٍ كان بحرًا، وإن وضع عذبًا في مجرى أكثر سعة وأبعد عمقًا كان نهرًا، وإن وُضع في مجرى أكثر وأكثر سعة وعمقا كان محيطا.

إن وُضع في قارورة اتخذ شكلها، وإن وضع في كوب أخذ شكلَه، وإن وُضع بين كفَّيك يأخذ شكلًا غير الذي يأخذه بين فَكَّيك.. وعليه فلا يجوزُ -تحت داعي أن جميعه ماء- أن يُوضع في كل إناءٍ مختلفٍ بشكل ثابت.

الحبُّ مسمى عام؛ كل علاقة فيه تأخذ الإناء الذي يناسبها وتتأقلم عليه؛ فلا داعي للسير وراء التجارب، ولا إمكانية في تكرارها؛ لأنه سيفشل، تمامًا كمن يحاول تعبئةَ بحر في قارورة، أو كمن يحاول أخذ الماء من الكوب ليضعه في زجاجة منتظرًا منه أن يظل محتفظًا بشكله السابق. وعليه؛ عيشوا تجاربكم كما هي في قوالبكم الخاصة، منزهةً من العبَث، وبريئة من السذاجة، وبعيدةً عن التفلسف.



كلُّ تجربة جديدة في كل ساعة جديدة تختلف عن مليار تجربة سبقتها، ومما لا يسعُ المحبُّ جهلَه، أنَّ في العلاقاتِ لا تُستنسَخ إلا التجارب الفاشلة؛ أما التجارب الناجحة فهي تلك التي لم تتكرر سابقًا ولن تتكرر لاحقًا.



(٩)

الأطفال.. يمزقون الأوراق، ويلقون كراسات الرسم في أقرب حوض ماء، ثم بدلًا من الرسم فيها يَرسمون على جدران البيت بعد أن يتخيَّلوا أفواههم محبرةً لا بد من مرور القلم عليها حتى يُلون.

يتركون الملاعب والنوادي والأحواش والمساحات الخضراء والزرقاء والحمراء والأراضين السبع والسماوات السبع، ويلعبون في الشارع؛ ليضربوا الكرةَ في أهم مصباحٍ فيه، وحينها يحلو الضحك. يهربون فيُروا، يُرون فيُشتكى منهم، يُشتكى منهم فيُضربوا، يُضربون فيغضبوا، يغضبون فيبكوا، يبكون فيصرخوا، يصرخون فيهدؤوا، يهدؤون فيعودوا إلى أحضان أمهاتهم، ثم بعد خمس دقائق يخرجون إلى الشارع بالكرةِ مجددا.

الأصل في الأشياء الطفولة، وللأطفالِ النظريات والنظرات الأصدق. القدماءُ حين رسموا على الحوائط،



كان استسلامًا لطفولتهم وإيمانًا بفطرتهم، ولولا طفولة ملوكهم أيضًا، لَمَا بقي لنا ركنٌ جميلٌ في العالَم، نزوره لنرى «شخابيطهم» على الجدران.

وإننا كذلك حين نريد الهدوء- نقصد مكانًا مريحًا، نختارُ الخافت الهامس، المتوهج بخفة من سراج على جدارٍ ما، يشبه الدفء الذي في أحضان أمهاتنا. إننًا حين نريد الهدوء نبكي، وحين نقصد الحضن نهدأ، وحين نهدأ نعود إلى طفولتنا ثم حين نعود أطفالا نجد أنفسنا التي نفر من براءتها.. فإنَّ أصل الحياةِ الحب، وأصل الحب طفولة القلب.



(١٠)

أنْ تشارك أحدَهم رائحةَ القهوة، أو معزوفة موسيقى، أو عبارةً أدبية، أو آيةَ قرآن، أو شطر شعر، أو نسمة هواء، أو صوتَ البحر، أو عطرًا خفيفًا، أو زاوية الابتسام، أو لحظةَ الضعف، أو جنون الإنجاز، أو مرارة الشوق، أو لَوعة اللقيا، أو مشقة السعي، أو فرحة الوصول.. تأنس.

ذلك أنَّ الحزنَ المقسوم على اثنين يُضعفه، والأُنس المضروب في اثنين يضاعفه، والمسافات بين الغرباء أقصر مما بين الأقرباء، والراحةَ بين الأنفاسَ المقطوعة أدفأ مما بين الأنفاس المتصلة، والأركان بين الذين يشعرون بأنهم وحدَهم أأمَن مما بين الذين لا يشعرون بالغربة ولا الغرابة.

فإن الذي يجعل مكانًا يجمع المنفيين وطنًا- هو أنهم لا يشعرون بأنهُ مَنفَى، لأنهم جميعًا يتشاركونه؛ لذا فإنَّ شعور «المشاركَة» ربما يكون الأكثر قدسية، إذ إنَّ العَلاقات كلها مبنية على أساسه، حيث يجمع الشيءُ الواحدُ بين روَحَين، ثم تتخذ الروحانِ هذا الشيءَ الواحدَ المشترك بينهما.. روحًا لكل الأشياء.



(١١)

لا يُطيِّب الروحَ المتعَبة إلا مَن يُشعرها أنَّ شوكةً في قدمِها طلقةٌ في قلبه، وأتفه اهتماماتها أولى اهتماماتِه، وأصَغر تفاصيلها أكَبر انشغالاته، وزواياها المهجورة هَي محورُه وقطرُه ومركزه، ولا يصدقن محبٌّ في حبه، إلا إذا ترقرق الدمعُ الجاري على خد محبوبه، في عينيه هو أولا.

لا يُطيِّبُ الروحَ المتعبةَ إلا روحٌ مرِيحةٌ تملؤها.



(١٢)

هناك صنفٌ مِن العلاقات اسمه علاقة «مُرِيحة»، ولا يُمكن وصفه بأبلغَ مِن ذلك؛ إنهم الأركان الآمنة، والزوايا الحرجة، ومرافئ البوْح، وشواطئ الأمان، وملاجئ الهروب.

إنهم الذين لا يغتابونك ولا يعاتبونك. إن غبتَ أبدوا لك اشتياقهم، وإن حضرت فتحوا لك أبوابَهم. إن اشتقت إليهم استحضرتهم، وإن حضروا يمكنك بين أحضانهم الغياب.

إنهم المرايا التي لو كنتَ منكسِرًا، انكسرَت لكَ؛ فظهرتَ فيها قائمًا.

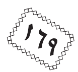


(١٣)

في الحقيقة.. يستهويني من الحبِّ نوعٌ آخَر، ويأسرني بتفاصيله البعيدة عن كل ما هو مرئي، وأراقبه في العيون التي لا يستطيع بعضُها مراقبة بعض، وأتعجب كيف لها أن تصبر شهرا أو عاما أو عامين أو خمسة، وأمام عينيها كل يوم ألف صورة ومشهد، وفي صوتها ألف أغنية محبوسة وكلِمة، وهي لم تسمع ولم ترَ حبيبها في سنواتٍ إلا دقائق أو ساعات؟

أتعجب للقابضين على جمر الحب وهم يدعون ربهم ويرجون رحمته أن يهديهم إلى ثمَرِه، أتعجب للواقفات مِن أجل رؤيةِ مشوَّشةٍ كل بضعة أشهرِ لشقائق أرواحهن. هَل رأيتم في الدنيا منْ يقف طابورًا بالساعات ليرى زوجه نصف ساعة لعشر مراتٍ في السنة؟! الأفلام والمسلسلات لن تقول هذا.

«حب زمان» الذي تبحث عنه الفتيات بين الأوراق والجوابات والمراسلات بعيدًا عن الحداثة، لن تجده في



«ليالي أوجيني» بقدر ما ستجده في مراقبة اثنين يتعانقان من وراء الأسوار أو الحدود، ويطبقان أيديهما معًا وهي تنزف دمًا فوق الأسلاك الشائكة.

إنَّ «أهل الحب المساكين» الذين ذكرتهم أم كلثوم لم يكونوا أبدًا أصحابَ الطرابيش الذين في مقدمة حفلاتها وعلى أيمانهم حبيباتهم، وإنما بالتأكيد كان المقصود هم هؤلاء الصغار الذين عاقبتهم الطرابيش؛ فأبى الصغارُ إلا أن يعلموهم كيف يكون الحب بين رحايا الحرب وكيف تكون الحرب من أجل الحب، وما يفعل الحب بالمحاربين، وما تفعل الحرب بالمحبين.



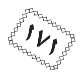
(١٤)

«وجعلنا الليل لباسًا»، واللباسُ كناية عن الستر إذ إن الليل غطاء مَن أراد التخفي، من أراد أن يبكي، ومن أراد أن يشتكي، مَن يُشتاق إليه، ومن أريد به أن يَشتاق، مَن أحب، ومن أراد أن يُحب، من اعتزل فأراد الأنس، ومَن خانه الأنيس فأراد الاعتزال، مَن أراد البوح، ومن أراد الكتم، من أراد غطاءً يتوارى فيه ليَضعف، دون أن يراه أحد فيُجبَر على التظاهر بالقوة، غطاء مَن هاجت به الذكرى، مَن أراد أن يغادر متأخرًا والناس نيامٌ ليدفنوه منتبهين في الصباح الباكر.

الليل، عزاء المكلومين، وجنازة من لا يقبلون في مصابهم العزاء.

المساء.. ألم.. ساء.





(١٥)

لكلّ منا معركته الخاصة تمامًا؛ تجربتُه التي يخوضها وحدَه، مع نفسه، بين طيّاتِ صدرِه ووسطَ حنايا روحه، بعيدًا عن أعين الجميع وفي مَعزلٍ عن الناس، بلا إبداءِ أي ملامح لهذه الحرب، كأنَّه يبتلع انفجارَ القنابل بداخله، فتُحدثَ ضجيجًا يُهشِّمُه بالداخل لكن لا يظهر منه في الخارج إلا احمرار وجنَتَيه فيظنهما الناظرون احمرَّتا من شدة الضحك.

ثم حين يقطعُ شريطَ النهايةِ وهو يعرج على قدمَيه بعد أن انقطَعَت أنفاسُه من كثرة ما أثخنته الجراح ونازعته الأرواح، وجاءَ موعدُ التكريم فتحامَل على نفسه واستقام على ساقيه كأنه معافى تمامًا.. ساعتَها يراه الناسُ -وإن الناس لَا يرَونه إلا في هذه اللحظة- فيهنئونه ببرودٍ على فوزِه، مستكثِرين عليه فرحته، وإنهم لو كشفوا صدره لوجدوه ينزفُ، ولو كشفوا قدميه من الأسفلِ لوجدوهما متشققتين كخنادق من نار.



فمِن السخيف للغايةِ، أن ينشغلَ أحدُنا -وهو على جبهة القتالِ- بما يقوله الراقدون في الظل، أو أن يهتَمَّ مَن تغتاله المسافَاتُ والأزمنةُ ويصارعهم ليصل إلى الحُلم- بِمَن لا حلم له، أو بمن له هدفٌ يبعد عنه شبرٌ واحد، لو نامَ على بطنِه بدلًا مِن جنبِه لوصل إليه.

وإن مثَل المقاوم وحده والناسِ؛ كالواقف على قمةِ جبلٍ يتشبَّثُ بحبلٍ مربوط به صخرة ثقيلة تنجرفُ بقوةٍ تريد أن تقَع، والناس في الأسفل لا يرَوْن معركته مع الصَخرة. يقولون: وهل الأمر يستحق أن يبكي وهو يلعب شدَّ الحبل؟



(١٦)

لا يكتمنَّ دمعاتِه إلا أعمى حتى وإن كان بصره يستطيع رؤية الذرة في المجرة.

ولا يسمح لها بالبوح إلا مبصر، حتى وإن كان مطموس العينين. ولا يدركنَّ ذلك إلا مبصر، ولا يبصرنَّ تمام الإبصار إلا من عرف كيف يصرف آلامه؛ فأتاح لها جوارحه، وأراح بها جوانحه.

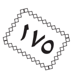
إنَّ الدمع هو أعز مطلوب وأقسى محبوب، هو ذلك المذياع الذي يفضح بالجوارح ما تخفَّى في الحشايا والجوانح، وإنَّ من يحاول منعَ دموعه أغبى مليون مرةٍ مِمن يحتمي من الفيضان بورقة توت، أو أكثر سذاجة ممن يقاوم سيلا بباطن كفيه، أو أكثر حماقةً ممن يحتمي من عاصفة رملية خلف عود قمح.

إن دموعَنا ذارفةٌ باستمرار كالشلال.. إما أن تسمح لها بالانسياب فوق صخورك فترتاح، وإما أن تحبسها داخلك



فتتجمع بالداخل، ثم تنفجر، فتتفتت، ولا يبقى فيكِ جزءٌ سالم.. فإن السدود التي تمنع الفيضانات حتى، بها فتحات تسمح بعبور الماء من حين إلى حين.





(١٧)

إن الفيضان لا يستثني أحدًا، والزلزال حين يضربُ قريةً لا يجامل بيتًا على حساب آخر، والفتنة لا تصيب ضعيفًا إلا لتقويَه، ولا قويَّ إلا المفتونون قبل أن يعودوا.

الأمرُ ثقيل، والعائد من الضلال إلى الهدى فتنته أشد؛ لأن أجره -إن ثبت- أعظم، والمولودُ ملتزمًا بالفطرةِ لا يساوي مثقال ذرة أمام من انقلبَ على أصله فالتزم، والسائر في رحابِ اللهً مهتديًا وحده ليس كمن وجد نفسَه على الطريق، والمتخبط بين طريقين حتى تفجَّر الدم من قدميه ليس كالنائم في ظل شجرة زرعها الله في أرضِ أهله، والمُفادي للقطارات التي تريد دهسه لأنه اختار الهدى، ليس كالمكتفي بالجلوس على المحطة منتظرًا قطار الدرجة الأولى.

لا أحد كبير. كلنا في حرمِ المحنة صغار، فتعاملوا مع الثباتِ على أنه متغير. ولا تُنظِّروا أو تلقوا بكلامكم وأنتم جالسَون في الأعلى؛ فإنَّ الكلام الذي يسقط من الأعلى يتعلق برقبة صاحبه ويأخذه معه إلى الأسفل.



(١٨)

- أتكتب حين تريد الكتابةَ؟

- لا. بل أكتب حين تريد الكتابةُ.

يظنُّ البعضُ أنَّ الكتابةَ رفاهية لصاحبها؛ إن شاء كتب وإلم يشأ وضعَ قلمَه جانبًا، لكنها على العكس تمامًا هي التي تتحكمُ فيك ولا تتحكم أنت فيها. تفضحُك وأنت تحاول التخفي، وتُنفس عن نفسِك كلما امتلأت بما يكفي.

إنَّ الورقة والقلم هما المشرط والمقص اللذان يفتحان -بلا مخدرٍ- جُرحًا دقيقًا في منطقةٍ حساسةٍ مِن قلب الكاتب فينزف منها دمًا.. ليعيش.

إن الكتابة ملَكةُ، أو بالأحرى ملِكة؛ لستَ سوى خادمها، تستعبدُك أو تعتقك متى شاءت، وتغازلك أو تغزلك متى شاءت، وتعاقبك إن قالت: «هيتَ لكَ»؛ فأبيتَ ما شاءت.

وعليه؛ فإنَّ حسبَنا في هذه الدنيا، وعزاءنا بعد ما نقضي، أن تحيا الكلماتُ بعدَنا، كما رأيناها حيَّةً تشفع لأصحابها وتستأذن لهم في الخلود.



وإنَّ القلمَ وحدَه قادرٌ على أن يورث الحب أو الحربَ في قلوب القارئين، والكلمة وحدها قادرةٌ على أن تجعل من الجدرانِ المتبقية بعد قصف المدنِ حجارةً بأيدي أطفال المدينة يكسرون بها أنياب الكَلاب، وإنَّ الحرفَ وحدَه قادرٌ على أنْ يستحيلَ في أفواهِ الصغار أسواطًا، يجلدون بها ظهور الجلادين الذين كووا ظهور آبائهم قبل عشرات السنين.

عزاؤنا أن تُرفَع الكلماتُ بعدما نوارَى في التراب، وأن يعرفَ الناسُ ما تفعل الحربُ بالمحبين وما يفعل الحب بالمحاربين، وأن يستلهم الصبيةُ من وحي القصيدةِ وجلالِ الروايةِ شعاراتِهم للحريةِ وأغنيتَهم للحياة.

إنَّ العزاء لهؤلاء الذين قطفوا زهور حيواتِهم فحوَّلوها صبَّارًا يملؤون به دوَياتهم أنْ يعيشوا بعد الموت عُمرًا بالحروف أضعافَ الذي عاشوه قبل الموت بالأرقام.



(١٩)

لكلٍّ تنهيدتُه؛ البعض يتنهد برئتيه، والبعض بعينيه، والبعض بقلم أو فرشاة بين يديه؛ فاحترموا تنهيدات الآخرين، ولا تتعاملوا كضباط مرورٍ، تشتكون من وقوفكم على أرجلكم طوال اليوم، ولا تدرون أنَّ السيارات التي تعبر أمامكم تحمل بداخلها موتى.

إنه لا يشعر بالمتألم إلا نفسه، ولا يعرف قسوةَ القيدِ إلا مَن حز القيدُ رسغَه، ولا يشعر بالشوكةِ إلا مَن سهر لا يقوى على تحملها ولا يطيق استخراجها، ولا يعيش ساعات الليل دهرا لا ينتهي إلا من شجّ الليلُ رأسَه، ولا يغلي مِن الفورانِ إلا المسكينُ المحبوس في إناء مِن نحاس على عينٍ من لهب.

إننا حين نقول إننا نشعر بفلان؛ فلأننا نشاركه مشاعر الألم، لا الألم نفسه. وبينهما فرق كبير؛ فإن الشعور بالمتألم لا يخفف ألمه لكنه يهونه، حين يُشعره أنَّ على وجه الأرض من يحِن له حين تقسو عليه الأيام.



في وادٍ آخر، يُنظِّر آخرون على المتألم تحت أي سقف وبأي مبررٍ دون أن يراعوا حرمة الشعور ولا قدسية المشاعر، وإنهم يكونون ألعن على المتألم من الألم نفسه، لأنهم لا يُثقلون الألم؛ وإنما يكونون بحد ذاتهم ألما ملعونا آخر فوق ألمه.

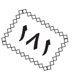


(٢٠)

في التعبير عن الألم.. يبكي البعض، ويضحك البعض الآخر، يصرخ أو يسكت، يسهر أو ينام، يصلي أو يستمع إلى الموسيقى، يقرأ أو يكتب، أو ألف «أو» أخرى لا تنتهي، كما أنَّ لكلِ تعبيرٍ منهم أقسامًا بداخله: هل يبكي وحدَه أم لحبيب؟ يكتب في دفتره أم للناس؟ ينام ليتخلص من الهم أم ليهرب منه؟

لا ألم في الحياة يشبه الآخر، حتى وإن صُنف تحت عناوين كبيرة موحَّدة، مثل: الفراق والبعد والموت والحب والشوق، لكنهم مختلفون قطعًا؛ لأن الذي أشتاق إليه ليس نفسه الذي تشتاق إليه، وإذا كان ما نشتاق إليه حتى شخصٌ واحدٌ أو شيءٌ واحدٌ.. فإن المشتاقَ أنا، ليس كالمشتاقِ أنت.

وعليهِ، فإن التعامل بنَمَطيّةٍ مع المتألم سطحية وسذاجة، وليس التنظيرُ على المتألم تحت أي مسمى إلا ضربًا من ضروبِ قلة الفهم ونقصًا في الشعور؛ لأنه لا أحد يشعر



بالألمِ إلا صاحبه، حتى وإن أحسستَ بفلان المتألم الذي تحبه؛ فإنك تشعر به وهو يتألم، لكنك لا تشعر بالألمِ الذي يؤلمه نفسه.

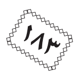


(٢١)

مَن يشكو أو يصرخ أو يكتب، هنا أو هناك، على الجهرِ أو لركنٍ آمن، لا يريد أن تقول له افعل ولا تفعل، ولا يريدك أن تشفق عليه، ولا يريدك أن ترشده إلى ما يعلمه هو أصلًا؛ وإنما يصرخ ليشعر فقط بأنه ليس وحدَه، يصرخ لأنه يريد آذانًا تسمع صراخَه دون أن تقترح عليه وسائل التخلص من الصراخ في عشر دقائق، يصرخُ لأنه يريد أن يشاركَ ألَمَه؛ لأنها الطريقة الوحيدة لمواساةِ نفسه، يصرخ لأنه يريد أن يصرخ.

إن المتألم، المتوجع، الذي يصل إلى درجة البَوْحِ بمرارته؛ لا يحتاج إلى شيءٍ، بقدرِ احتياجه إلى أن يسمع نفسَه بأذنيك، لا أن يسمعك هو بأذنيه.

وإن أفضل طريقةٍ لاحتوائِه أن تحضنَه، والحضن يكون بين الضلوع إن كان في نطاق المكان وسماح الظروف، ويكون بين الآذان إن كان خارج هذا النطاق.



إن المتألم إلَّم يجد في البوح -آخرِ وسيلة لعلاجه- أملًا ؛ فإنه حتمًا سيموتُ بنزيفٍ داخلي، وإنه حينَ يكفُّ عن بوحِه فليس لأنه شفي منه، وإنما لأنه يئس من شفائه على يديك.

فانظر كم واحدًا وأدته حيًّا بلسانك، ولو كانت جراحاتُ النفوس كجراحات الأبدانِ تُرى؛ لَما استطعت السير من بركِ الدم المسفوح حولك وأنت لا تشعر.



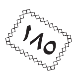
(٢٢)

إنَّ المراراتِ لا يقارَن بعضُها ببعض، وإنَّ ألم الشوكةِ في قدم أحدِهم قد يساوي ألم الرصاصةِ في رأس آخر، وإن المرءَ الواحدَ كلما ذاقَ ألمًا قال إنه أبشَع ما مرَّ به على الإطلاق.

فمن السطحية الساذجة والتنظير السخيف أن تقول للمريض بالصداع أنه ليس مريضًا بالسرطان، أو أن تقول للذي يصارع الموتَ أنه أفضل حالا من المقتول، وأن تقول للمغترب بأنه أفضل حالا من المسجون.

إن للألم حرمةً؛ فتأدبوا، وإنَّ للألم قدسيةً كالليل؛ لا يحتاجُ إلى شمَس تجعله نهارًا- بقدر ماَ يحتاج فقط إلى مصباحٍ خافتٍ كالقمر؛ يهيئ له الجو المناسب.. ليبوح.





(٢٣)

في الحقيقة.. لا ندرك أهمية الأشخاص إلا بعد رحيلهم ولا نخبر الأقربين أنهم كذلك إلا بعد أن يبتعدوا، فيكون أقصى ما لدينا اليومَ أخبارهم، بعدما كان بين يدينا في الأمس إخبارهم.

وإننا على ذلك نستحق أن نُسحق وأولى بأن نبلى وأحرى بأن نموت نحرا؛ لإهمالنا كل مستحق للاهتمام، واهتمامنا بكل جدير بالإهمال، ولِتيهنا بين زيف المشاعر ومشاعر الزيف، ولرمينا السهم في قلبٍ هجرناه طوعًا في ليلة باردة، واستبدلنا به بيتًا من القش لا سقف له ولا أعمدة، ثم سهرنا الليل كله نلعن الشتاء.. وقد كان الأولى بنا أن نلعن الخريف الذي في الداخل بدلًا من الشتاء الذي في الخارج؛ لأن سبب البردِ كان القلب الذي هجر المدفأة.

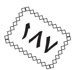


(٢٤)

أكثر المشاعرِ جمالًا أن تتخيل البعيدَ قريبًا رغم بُعده، وتبقى هكذا حتى تستحيلَ المسافاتُ صفرًا كبيرًا، فيصير ذاك الغائب أقرب إلى عينيك من جفنيك؛ يقتربُ منكَ في مساحة التخيلِ حتى يستقر في أفلاكك ويعلقَ في شباكك ويسكنَ مواطنَك.

ثم الأقسى شعورًا أن يَغتال القدرُ الخيالَ برصاص الواقعية، ويغتال العقلُ المراوغةَ بسهام المواجهة، ثم تنظر مجددًا إلى الحائط الذي أسندتَّ إليه جناحَك المهيض، فلا تجد الحائط كتفَ حبيب، ولا الوسادةَ حضن غائبٍ، ولا الغرفةَ دافئة بأنفاس أحدهم؛ وإنما تجد الحائطَ حجارةً، والوسادةَ قطنًا، والغرفةَ حيزًا من الفراغ، والقربَ وحيًا من الخيال.



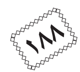


(٢٥)

حين يقول أحدهم: «أريد أن أكون وحدي»؛ فهو في الحقيقة يقول: «أريدَ لي أن أكون وحدي». إذ إن الوحدة ليست إرادة وإنما إجبار؛ فلا أحد يحب العزلة أو يستأنس الوحشة؛ وإنما هو بعد خذلانِه يبحث في نفسه عما يغنيه عن الناس، لأنَّ في وجودهم عدمًا، وفي انعدامهم احتماليةً للوجود.

تشعر أنك ملقى في أبعد ركن من العالَم، لا أحد يلتفت إليك، ولا أنت تستطيع لفت انتباه أحد، وحينها نقول: إنها الوحدة حين تعطينا البصيرة، لكن تسلب منا العيون.

كل المجازات التي تتغزل في الوحدة والعزلة تسقط جميعًا، ولا يبقى منها أمام العين مثقال ذرة، كل هذا يسقط من الأذن التي سمعته حتى حفظته حين لا يسمع الوحيدُ من ضجيج الملاعق إلا ملعقة واحدة، كل هذا يسحق القلب والعقل بين رحى الأسئلة المتروك إجابتها للطالب، والطالب



مسكينٌ، وحيدٌ، بلا جواب، ويبقى وحده، لا يرى أمامَه إلا وجهًا شاحبًا، يشبهه، منعكسًا في المرآة، تتساقط من فمه الإجابات، وتتكاثر في عينيه الأسئلة.

فلا شيء أثقل على النفس من أن تنفد وحدها، أو تُستهلك في ركن منعزل وحدها، أو يأكل صاحبها وحده -في ساعة لا يأكلٍ فيها الناس إلا جماعات- فتتآكلَ وحدها. وعليهِ، فإن الغُربة تُربة، نتمدد فيها باستسلام، محثيًّا على وجوهنا التراب، ولم يبق إلا أن تُسبَل عيوننا في سلام.

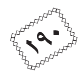


(٢٦)

إنَّ الموت الذي يقطف الورد من أحضان البساتين كل يوم لا يدعونا إلى انتظار طرقِه على أبوابنا، فإنه لا يستأذِن، وإنَّما يدعونا إلى الحياة أكثر قبل أن يأتي.

إنَّ أقسى اللحظات ألمًا في رحيل مَن أحببت، هي تلك اللحظة التي تقول فيها كل شيءٍ تأخرت عن قوله، وتُصرح بكل ما خفت أن تلمِّح به، وتصرخ بكل ما همست به في نفسك.. أمام جسدٍ أذناه مسدودتان، وعيناه مسبَلتان وقلبه متوقف، وروحه صعدت إلى مكانٍ لا يصله الضجيج الذي في الأرض.

ليس الموت وحده الذي يعطينا الدرس الذي لا نستوعبه أبدًا، وإنما أشكال الرحيل عمومًا؛ فنندم على تأخرنا في الحديث، وتأتأتنا في الكلام، وتلكعنا في السير، والكلمات التي صارت بلا معنى، أو ربما كان لها معنى قوي، لكن وقتها فات.. فماذا يعني انتظارك في المحطة بعد مرور القطار؟



وماذا يعني وصولك المطار بعد إقلاع الطائرة؟ وماذا تعني «أحبك» بعد «الوداع»؟

ففي هذه الحالة كأننا نضع أصفارًا على يمين الواحدِ.. بعدما رحل.



(٢٧)

إنَّ الحقيقةَ التي على الجميعِ التسليمُ بها- هي أننا مجرد عابرين على آخرين يعبرون على آخرين غيرنا؛ مجرد ساعة في ليل طويل، تنقضي كما ينقضي الليل تاركًا السماءَ والنجومَ والقمر، أو كما يمضي القمرُ تاركًا الليل والنجوم والسماء، أو كما تمضي النجومُ تاركةً الليل والقمر والسماء، أو كما -في النهايةِ- سيأتي دور السماء أن تمضي؛ فلا تترك مِن بعدها شيئًا.

الفكرة في أن نستعد للإقامةِ بإدراكِ معنى الرحيل، وأن نترك في قلوبِ الطيبين مِن خلفنا ما يتركه القمر في عيونهم من ضياء، وأن نوزع أنفسنا أجزاءً على أرواحِ الذين نودُّ الخلودَ فيهم.

إنَّ هذه الدنيا مراحِل، وكلُّ امرئ منها راحِل، إلا الذين أدركوا معنى البقاء بالحروفِ لا بالأرقام، ومعنى الخلود بالأثر لا بالمسير.



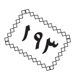
(٢٨)

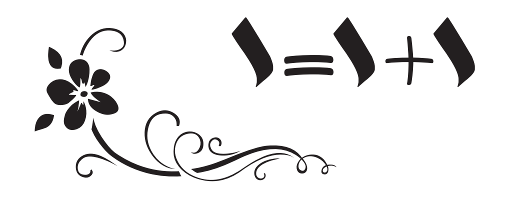
في الحقيقة.. كل الباحثين عن الأنس الذي ينفي عنهم وحشتهم، عن الوجد، عن الجود، عن الوجود، عن الوجدان الذي يملؤهم بالدفء، عن الحب، عن البوح، عن البراح الذي يسع صدورهم، عن الجمال، عن المجالِ الذي يستطيعون في أفلاكه الدوران، عن السمر، عن القمر، عن المقر الذي يلجؤون إلَيه، عن السكن، عن الساكن، عن السكون الذي يهدئ أبحرهم المضطربة، كل الباحثين الذين تفرقهم مواضيعُ ومواضعُ بحثهم، وتجمعهم ساعاتُ الليل وحدها، الذين يفرقهم المكان، ويجمع الزمان بينهم.. يومًا ما، سيسهرون مع حاجاتهم التي نالوها، بعد سهرهم ليالي طويلةً مع حاجاتهم التي يريدونها.

يومًا ما.. ستَحُل مكانَ الخيالات حقائق، وبدلًا من الظلالِ المعكوسة على الجدران؛ أرَكانٌ يستندونِ إليها، وبدلًا مِن الظل الَوحيد على الحائطِ كل ليلةٍ، ظلَّان على الحائط نفسِه.. لحقيقتين تتعانقان.

في الحقيقةِ.. مِن حقنا الحقيقة!






۱+۱=۱

(١)

لم أكن مهتما بالتفاصيل الجميلة قبل أن تأتي..

لم أكن مهتما بالتفاصيل الجميلة قبل أن..

لم أكن مهتما بالتفاصيل الجميلة قبل..

لم أكن مهتما بالتفاصيل الجميلة..

لم أكن مهتما بالتفاصيل..

لم أكن مهتما..

لم أكُن..

قبل أن تأتي.





(٢)

الحب هو اثنان يقلبان نواميس الكون، ويخالفان قوانين الطبيعة، ويُغيران ثوابت الحياة، وهما في سلام نفسي داخلهما، يوحي بأن الكونَ كله على خطإٍ وهماً وحدهما على صواب.

يجعلان مجموع الاثنين واحدًا، ويقسمان أن القطبين المتشابهين يتجاذبان، ويخلقان نظرية تقول بأنه من الطبيعي أن يجتمع القمر مع الشمس في فلكٍ واحدٍ.

الحبُّ هو زهرةٌ تنبت بين ألف شوكةٍ، ودولةٌ تعلن استقلالها بين ألف عدو، وحصانٌ يواصلُ المسير -على قدمين- إلى الأبد.



(٣)

في نسخةٍ ملائكية من العالَم، وجزءٍ هادئ معزول عن صخب الكوكب، وسماءٍ تنكرت في هيئة أرضٍ، تحيا هذه الأطياف الساكنة المسكينة المسكونة المسكنة، لا مشقة في الوصل، ولا زهد في العطاء، ولا حرج في البقاء هكذا في ركنٍ آمنٍ بلا أجل.

المساحات المؤمِنة بك، والساحات المؤَمَّنَة لك، والأوطان الآمنة فيهم وفيك؛ كأنَّ للجميع مسافاتٍ تُقطع بأقدام مغبرة ووجوه دامية، لكنهم وحدهم، سبيلهم إزاحة، متى خطوتَ بأي بُعد في أي اتجاه على أي مدى وجدت نفسك لديهم ووجدتهم لديك؛ إذ إنَّ المسافة إهدار للوقت وبذلٌ للجهد ومضيعة للزاد، لكن الإزاحة هي أقرب خطٍ مستقيم بين نقطتين.



(٤)

إِن الأصلَ في الحياةِ ألا تسير فيها منفردا، ومن مسلَّماتِها الأُنس في روحٍ تألفها، فتأوي إليك، ويملأ كلٌّ منكما فؤادَ الآخر بقلبه، فتأمنا وتُؤمنا، وتطمئنَّا فتُطمئِنا.

وإن الباحث عن الراحة في العُزلة كمن يبحثُ عن صدَفة في عرض البحر وهو يغرق. نعم الصدفَة جميلةٌ لكنَّكَ تحتاج الآَن إلى خشبة تحملك فتحميك من الغرق، ترد إليك الروح، وتبعث فيك الحياة، وترسو بك على الشاطئ.. ثم هناك على الشاطئ، ستجد كل الصّدَفِ الذي تبحث عنه، والصُّدَف التي تبحث عنك.





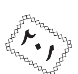
(٥)

لأنها حالةٌ متفردة، متمردة على كل النمطيات، لا يُقاس عليها ولا بها، متبرئة ممن يَدَّعي فهمها، خاضعة لكل من يُسلم بغموضها، مُخضعة كل عزيز، ومُعزة كل ذليلٍ دونها مادامَ منقادًا إليها.

لأنهما الحرفانِ اللذان يحاول الستة وعشرون حرفًا الآخرون أن يدندنوا حولهما، منذ آلاف السنين، ولم يصلوا ولن يصلوا إلى مثقال ذرةٍ جوارهما.

وإن مِن إعجاز هذه اللغة جمالُها وشرحها لنفسها، فهذا هو التفسير الوحيد لكوني لم أرَ فيها أعذب من حرفين ليّنَين يهمسان بالثغر قبل أن يهمس هو بهما، كالحاء والباء.. كأن الكلمة تضفي على نفسها قدسيةً توضح معناها وتبرزه.

إنها مُعجِزة المفسرين عن الفهم، وعاجزةٌ عن تفسير ذاتها إلا بذاتها، وكل اللكمات التي يدَّعيها علماءُ اللغة



أنها ترادفها ليست سوى معانٍ أخرى تحاول التقرب إلى ذلك المعنى الوحيد، لكن هيهاتٌ هيهات.. فلا شريكَ له في الجمالِ ولا مضاهيَ له في العذوبة.

إنه الحب.



(٦)

كانت حياتهما كتابًا عتيقًا أوراقه صفراء كأنه آخر ما تبقى من عصر ما قبل الطباعة، فارغًا تماما، متفرغا لقلميهما يخطان فيه حكاية اثنين، كانا جريحين إلى أن تلاقيا قدَرا فالتأما، وكانا كسيرَين إلى أن سقطا في شِباك القضاء فجُبرا، وكانا ألمين وقلمين إلى أن وقعا في الصفحة نفسها، فصارا قلما واحدا، وألما راحلا، يغادر القلبين بلا عودة.

كجنديين استبدلا بالرصاصِ، القلمَ الرصاص.



(٧)

لا شيء أوثق من عقدة الأرواح أو أقدس من ميثاق القلوب. سبحان مَن يؤلف بين قلبين ويجمع بين روحين؛ ترى واحدتها الأخرى وإن حال بينهما ألف مدينة ومائة دولة وعشرة بحار ومليون موجة، فلا تستطيع الأرْضُ أن تفرق بين اثنين جمعت السماء بينهما؛ إنه الحب.

وإنَّ الحبَّ هو ما كان مقترنًا بالمروءة في قصد المنابر، وبالكرامة في أصل المشاعر، وبالشجاعةِ في البوْح المصحوبِ بالدلائل، وبالقدرة على ربطِ القلبِ بميثاق المنَطق، بعيدًا عن ملء الفراغات بعد النكسات وعن التمني وعن التواكل.

إن الحب هو مسؤولية المحب في أن يرقى به من تذاكر الوعود إلى دفاتر العقود.

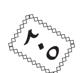


(٨)

وما بينهما من خيالٍ ليس خيالًا في حقيقته لديهما؛ وإنما مدينةٌ فاضلةٌ يعمرها الوصلُ المتأدب والأدبُ الواصل. بيوتُ المدينةِ لَبناتُها ذكرياتُ الصبر ومرارة الذكريات، وأرضُ المدينةِ رِيُّها حلاوةُ المنال ونيلُ الجمال، ونشيدُ المدينة عهدٌ قطعاه معا على مواصلةِ الطريقِ مهما قسَت أحجارُه أو علَت أسواره.

وتكاد تقرأ في عيون المحبين بمجردِ أن تراها، كم مرةً أماتَ أصحابَها الشوقُ ثم أحيتهم اللقيا؛ حتى تكاد تعرف من نظراتهم في أي ليلة تقابلا قدَرًا، وفي أي قدَر تقابلا أَصلًا، ومن أي أصل نبتَت بينهم زهرةُ الحبِّ وبأَي تربةٍ غرسوها، حتى تُخرجَ من أكمامِها هذه البساتينَ كلَّها.. مُلخَّصةً في عينين لا أكثر.





(٩)

ترتبط الأرواحُ بشيفرةٍ عجيبة؛ لا يُحبك عقدَها إلا خالقُ الحب والمحبين وَحده؛ فتتعلق القلوبُ بعضُها ببعضٍ تعلقَ الطفل بحضن أمه.

وإن التعلُّق هو أن لا ينفك المحبوبُ عن ذكرك، ولا تنفك عن تذكره، فلا يعلم أحدكما موضعَ الآخر منه، ولا يدرك لما بينكما تعريفًا، ولا يحفظ لما أنتما فيه اسمًا؛ أهُوَ الحبُّ مَن جمعكما في ناديه؟ أم أنكما اجتمعتما فأوجدتما للحب بينكما ناديًا؟

وعليهِ، فاطمئنَّا أنّكما حبيبان ما دمتما لا تعلمان أيكما ذاب في صاحبه أولًا، وأن كلًّا منكما لا يدري وهو في حرم محبوبه.. هل يذوب القلبُ لأنه سمع «أحبك»؟ أم يسمع «أحبك» لأن القلب ذاب؟

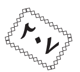


(١٠)

إن المحبَّ الحقيقي لا يكون كعابر سبيلٍ بأبواب مدينة حلوة، فتأسر عيونَه أبوابُها، وتظلله أشجارُها، وتؤويه مساكنها، وتحميه جدرانها؛ فيسكن إليها ساعةً من نهار، يستريح، ثم يرحل عنها إذا جَنَّ الليل وحل الظلام.

إنما المحب مَن إذا آوَتْه مدينةٌ مرَّ بها، تحولت من محطة إلى وجهة، ومن وسيلة إلى غاية، فيملؤها وتملؤه، عطرُه يسكن جوانبها، وعطفه يُهون نوائبها، وَجُودُها يحوله من عابر إلى مقيم، وَوُجودُه يحولها من مدينة أشباح إلى جنة أرواح.





(١١)

ولعلَّ روحًا بعيدةً تصلها وتصلك، ووجهاً لا تراه ولا يراك، وعينينِ تسكنهما رغم النفي والتهجير- يغنونَك عن وجوهِ البشر المجتمعة في قارورةِ العالم، الذي تُجبَر على التعايشِ معه، دونَ مَن اخترتهم بمحض إرادتك.

وبرغم البُعدِ، فلكلِّ قمرٌ يشاركه تفاصيلَه التي لا ينتبه إليها أحد، ويدور حوله بفعل جاذبيته، ويسبح في فلكه بقدر تعلقه، ويلزمه فلا يفارقه من شدة الولع به، ويهمس المحبوب في حضن محبه:

«يا شمسي.. لولاك ما رأوا جسمي المعتمَ قمرًا».

فيرد المحب:

«بل أنت يا قمري مَن يَهب شمسي الضياء».

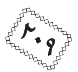


(١٢)

لا تتجاهلوا الشمس حين ترون الأقمار، ولا تنسوا ملايين الكراتِ التي تحترق، من أجلِ أن تتأملوا ضوءًا أبيض، يشبه في نصاعته وجهَ كل حبيبٍ، تحول بينكم وبينه مسافاتٌ، أبعد من المسافات، التي تحجبكم عن احتضان القمر. وأنه على الناحية الأخرى من هذا المجالِ.. شمسٌ تهب القمرَ المعتمَ أجملَ ما فيها.

فلا تقولوا للقمر: «ما أجملك»؛ ولكن قولوا: «ما أجمل الجميلَ الذي جملك». فإن النفوس كالشموسِ ظمأى؛ رِيُّها التقدير والبوْح بالجميل، ولا تشتكوا الحرارة الناتجة عن اشتعال أحدهم ليضيئك فيؤنس وحشتك في الليل.. فإن للجمال وجهين؛ أحدهما يحرقك، والآخر يشرقك.





(١٣)

وإنَّ جمالَ الوصلِ في قلة الوصول، وصعوبة الحصول، والتمرد على متطلبات الاتصالِ بتسلل الوصال؛ فلا تمنعك المسافات من السفرِ إلى حيث الروح إلى الروح تسكن، ولا يمنعك البعدُ من قربٍ يُطَمْئِن.

وإن الحبَّ ليس بأن يراكَ المحبُّ بعينيه في اليوم ألف مرة، وإنما أن يراك في كل مرةٍ، كأنها أول مرةٍ يراك.

إن حلاوة الحب في مرارة التعلق، ومرارة الشوقِ في حلاوةِ الصبرِ عليه، واعلم بأنك لا تبلغ ذروة سِنام الحب، إلا إذا أنسَتكَ قطرةٌ من حلاوتِه بحرًا من مرارتك.



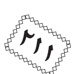
(١٤)

وليس الحب بأن يكون المحبوبُ بلا عيوب، وإنما الحب أن يظل المحبوبُ محبوبًا برغم العيوب، وأن يبصرك بقلبِه ولو كان مكفوف البصر.

اعلما أنكما لستما نظرية رياضيات حتى يكون مجموع وجودكما اثنين، لكنكما معادلة مستقلة وعلم قائم بذاته؛ مصدر التمرد على العلوم، وعقدة جهل الفلاسفة.

أنتما كسران؛ جبيرتكما الوصال حتى تتصلا، وشفاؤكما ذوبانُ جزيئاتِ كل منكما في الآخر حتى تصيرا عنصرا واحدا، وكمالكما مواراةُ كلٍّ منكما نقصه في الآخر حتى تكتملا، ومعادلتكما كسرٌ مضافٌ إلى كسرٍ متكئا عليه ومستندا إليه، تجعل من المكسورَين واحدا صحيحا.

إن أصل الحب الاحتياج، وثمنه الصبر، وبرهانه التضحية؛ بدايته القبول، ونهايته الإدراك، وبينهما التجاوز.



فمتى احتجت إلى مَن يجبر كسرك بحثتَ حتى وجدته، ومتى وجدته أحببتَه، ومتى أحببته صبرتَ على مرارة علاجه، ومتى صبرت على مرارة علاجه نسيتَ مواجعك؛ فظهرتَ أمامه باسما، وتلك هي ابتسامة الحب، البديهية تماما كصرخة الولادة.

دخلتُ الحب أعمى، وانتهيتُ فيه إلى أنه لا بد من التعامي.

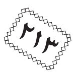


(١٥)

صَدقةُ الروحِ الحب، وصدقة الحب الوصال، وصدقة الوصال الجمال، وَصدقة الجمال التذوق، وصدقة التذوق التقدير، وصدقة التقدير التغافل، وصدقة التغافل الإحسان، وصدقة الإحسان المداومة.

وليس بعد المداومةِ على إحسانك بعد تغافلك، تقديرًا وتذوقًا لجمال الوصالِ؛ إلا روحٌ تحبها.





(١٦)

جمال الوصل في الرضا بقليله، وحلاوة الشوق في حرارة تفاصيله، وجلال الحب في عذوبة مواويله، وعهدُ المحبين صفاء الود وإن كان قطرة، وكراهة التكلف وإن كان فيضانًا.

فإن الحب نبتةٌ؛ جذرها التراضي، وساقُها التغاضي، وأوراقها سلام الأفئدة، وثمرتها تآلفُ النفسين في روح واحدة.

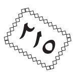


(١٧)

وإنَّ الحب لا يتطلبُ منك كثرةَ الوصال ولا إلحاحَ الاتصال ولا ديمومةَ الوجود؛ وإنما أن يركَن المحبوبُ إليكَ وحدك مِن وسط الزحام؛ فيجد في روحك غنىً عمن سواك.

فسلامُ الله على قليلين؛ قليلُ الوصل معهم يكفي، ومرور طيفهم بالروح يشفي، وَجُودُ وُجُودِهم يُغني.. عن كثيرين، متزاحمين كـ «الهم على القلب» يرهقونه، حتى إذا همَّ الفؤاد بطلب العون انفضوا من حوله، ثم حضر واحدٌ لم يكن في زحامهم يومًا، لكنه يتجلى كلما انفض الزحام، وينير كلما انقضَّ الظلام.





(١٨)

ضريبةُ الحب الاشتياق، وضريبة الاشتياق الصبر، وضريبة الصبر المرارة، وضريبة المرارة التحمل، وضريبة التحمل الكتمان، وضريبة الكتمان أن توشك على الانفجار، حتى إذا دنوتَ من ثورة البركان بداخلك بعد طول صبرٍ اشتياقا إلى المحبوب.. نزل الغيث.

فإنَّ الذي يطلب حبا بلا تضحيات، أو وصلا بلا انقطاعات، أو وُدا بلا بدل، أو سكنًا بلا ثمن، كمَن ينتظر العيد بلا مشقة صوم أو مخمصة حج.. أو كمن يريد ثمرة تينٍ بلا شوكِ قشرتها.

وكما أن الحريةَ غاليةٌ لا يعرف ثمنها إلا أسير، والصحةَ غاليةٌ لا يعرف ثمنها إلا مريض؛ فإنَّ الحب غال ولا يُبذَل إلا في سبيل غالٍ ولا يعرف ثمنه إلا نقيُّ روحٍ وثريٌّ قلب.

وعليه؛ فإن الحب لا يكون حبا إلا إذا أتعب وعذب، حتى يُستعذَب.

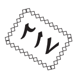


(١٩)

لا يَسوق الملايينَ نحوَ قبلةٍ واحدةٍ وربٍّ واحدٍ غيرُ الحب الذي برهانه التضحية، ودليلُه السعي، وسبيلُه الوصال، حتى ولو شقَّ على المريدِ وصلُ حبيبه، أو الاتصال به، أو الوصول إليه.

فحُجوا إلى محبوبيكم، رجالًا من كل فَج عميق، واسلكوا كل وعرٍ في سبيلِ الوقوف بأبوابِهم، محبينَ كرامًا لمحبوبينَ كرام، واصعدوا إليهم كل قمة تقربكم منهم، وارجموا كل وسواسٍ يحول بين القلبِ وأهلِه، ثم تَطوَّفوا بأرواحهم، واذكروا الله في كل المشاعر، واسعوا -مشيًا وهرولةً- بين كل موعدٍ وموعدٍ، ثم طوفوا بهم الوادعَ إلى أن يأذن الله لكم بلقاءٍ جديد.





(٢٠)

إن مسألة الحب أكثر تعقيدًا مِن مجرد محبوبةٍ تجلس في البَسط.. ومحبٍّ يحملها فوقه يسكن في المقامٍ. الحبُّ هو المسألة التي قد تجد فيها -بعد عشر صفحاتٍ- الناتجَ صفرا، أو بعد أول خطوةٍ واحدًا صحيحًا.



(٢١)

شعور الصدقِ الذي يتجلى في أول نظرةٍ مفاجئة، وأول إحساسٍ مشترك، وأول تخاطرٍ بالشيءِ نفسه؛ أن تُنطَق الكلمةً ذاتها في الآنِ ذاته علًى لسانيكما، كأنَّ لديكما عقلين امتزجت فصوصهما؛ فأرسلا الإشاراتِ دفعةً واحدةً مقسومةً على اثنين فكان الناتجُ قولًا واحدًا صَحيحًا.

صدق الشعور الذي يتجلّى في كوْنكما واحدًا صحيحًا، مضروبًا في قلبين اثنين امتزجت دماؤهما، يرسلان إلى اللسانين في الوقت نفسِه، الكلمةَ ذاتها، في أول تخاطرٍ يالشيءِ نفسِه، وأول إحسَاسٍ مشترك، وأول نظرةٍ مفاجئة.



(٢٢)

إنَّ الري بعد الجفاف إن جاء نديا بلا طلبٍ كان عذبا، وإنْ أهمِل الظمآنِ مَظنة ارتوائه لأنه لا يَطلب، كان عذابا.. فإن السَقيا لا تُطلَب، والأرض لا تنذر قبل أن تجدب، وسطح التربة إن كان كله يبدو واحدًا، فباطن كل شبر فيه مختلف؛ إما يتشقق ليسعَ الجذور، وإما يتشقق ليعلن النفور.

فإن زهرة الحب عزيزة؛ ترضى بالجميل، وتقنع بالقليل، وتضيق بالبخيل؛ فاسقِ غرسك ينبت، واروِه باعتدالٍ.. يثبت.

اجعلوا تربة وصالكم رطبة، لا هي بالمغرقة فيموت المحبون فيها، ولا هي بالجافة فيهلك المشتاقون بها، وإنَّ غمر زهرةٍ بالماء بعد ذبولها ليس إلا إهدارًا بعد قتر، كمن يسكب وعاءً لبن ثم يبكي عليه في آن واحد، ومرتكبُ الحماقتين واحدٌ؛ هو أنت.

وعليهِ؛ فليكن وصالكم كالندى، لا هو جفاف يذبل زهور قلوبكم، ولا مطر شديد يقتلها.



إن الجمال كله يكمن ها هنا، في المرتبة الوسطى بين السماء والأرض، بين الفؤاد والعقل، بين المحبوب والمحب، بين «أحبك»، و«أشتاق إليك».



(٢٣)

ماذا يصنع الحبُّ؟

في الحقيقة، لا يصنع الحب شيئًا غير أن يمحو نفسَك من حيث لا تدري، ويلصق بدلًا منك شخصًا آخر، كنتَ تقسم ألفَ مرةٍ أنك لن تكونَه. بمعنى؛ أنَّ العنيد الذي كانت حياته عبارة عن «لا» كبيرة جدًّا ويرى الناسُ أن تَسبقَ اسمه عند النداء؛ فيقولون «لا فلان» بدلًا من «يا فلان»، تعلَّم بعد الحب أن يقول «نعم» وهو مبتسم، يسبق بالإجابة بها قبل أن يعرف السؤال. إنه العناد الذي يذوب تمامًا، وتُبنى على أنقاضه «نَعم أو نِعم» كبيرة جدا.

أن يستحيل العصفورُ الحزينُ طائرًا فرِحًا؛ يطير حيث طار من قبل لكن بجناحين ريشهما من هوى المحبوب؛ يُرى أثر هوى نفسه في هوا الناس؛ فيقطع المسافات كلها مجددا، ليعتذر عن طَيرانه المتعَب ها هنا من قبل.

أن تَسقط النظارة السوداء فيظهر الكونُ كاملًا، وبه شمسٌ وقمر وضحى وشفق وألوان سبعة، كأنَّ الكون وُلد حين

وُلد الحب في القلب البريء، وكأنَّ العينين كانتا مغمضتين تنتظران من يدب فيهما بأنامله البصر.

أن يضحك الثغر الذي تقوَّس من الوجوم، وتلمع العيون بدموع الفرح بعد دموع القرح، وتصير الدنيا جنة بها كل الورود التي تحبها، وكل الروائح التي تؤنسها، وكل الأرواح التي تألفها، وكل شيءٍ كأنه خُلق لها، منذ أن خُلق لها، مَن يمثل لها، كل شيء.

(٢٤)

وبعد الحب؛ فإنَّ أعجزَ ما يُكتَبُ عنه، وأثقل ما يوصَف، وأقسَى ما يُشعَر به، هو «الشوق»، الذي في شينِه شقاء، وفي واوِه وَلَه، وفي قافِه قسوةٌ؛ أي إن الشوق يُشقي الولهانَ بقسوة.

فإنَّ الوَجدَ في حرم الوجود شديدٌ، فتجد المحبين مشتاقِين حتى وإن ناموا على أَذرعِ محبيهم واستيقظوا على أكتافهم!

فما بالك بمسكينٍ، ينامُ ربما لليوم المائة أو للعام الخامسِ، دونَ أن تتكحل عيناهُ برؤيةِ محبوبِه، ولعلَّ أعظم ما يجودُ به الزمانُ عليه طيفٌ من الخيال سرعانَ ما يقطعُه سؤالٌ مِن الواقع يقول: «متى تكتملُ الأقمار؟ ومتى تندَى الأودية؟».

شَ..وّ..قٌ «بضمَّتين».



(٢٥)

كأنَّه مِن مسلمات الكونِ أن يفصل بين كل حبيبين شيءٌ ما، يجَعلهما يرتقيان -رَغم أنفيهما- من الحب إلى الشوق، ومن الشوق إلى الغرام، فينشدا معًا:

باسم كل الحدود التي بيننا..

باسم كل البحار التي تنقل أنفاسنا..

باسم كل البلاد التي تصقل أصواتنا..

باسم كل الرسائلِ مجهولة العنوان..

أحبك..

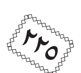
مثل صبارٍ وحيدٍ..

يعيش في إحدى الصحاري..

يحب من إحدى الجنائن..

زهرةً من أقحوان.





(٢٦)

وأُنْسُ الروحِ رَغم البُعدِ باقي..

وفي يومٍ.. سيؤذَن بالتلاقي..

فواللّهِ..

مَعِينُ الدمعِ بَحرٌ..

وواللّهِ..

خَوَاءُ الحضنِ مُـرٌّ

وآهٍ مِن مرارةِ الاشتياقِ.






مِنهم.. مَن هم..



(١)

مِن الناس من يكون حضوره كنسمةٍ لطيفةٍ تُقبل جباهَ المساكين بين نار السَّموم وبَرد الزمهرير، كقُبلةً حياةٍ تهب الروح للعالقين بين قسوة الجفاف وهمجية الفيضان.

من الناسِ من يكون حضورُه خفيفًا، لكنه يمحو آثارَ ألفِ عاصفةٍ هوجاء ثقيلةٍ قبله أو بعدَه.

(٢)

ومن الناسِ مَن هو عونٌ للروح وبهجة للقلب وسلوى للنفس وبلسم للصدر ونومٌ مطمئن رغم الزحام.

من الناس مَن إن اقترن بك كنتما ميلادا لكل شيء حي، وإن انفرد عنك كان كلٌّ منكما عرضةً للاحتراق.

(٣)

ومن الناس أرواحٌ كالغيث؛ يَروُون أرضك المقفرة حتى تنبت، وكالشمس؛ يُقوون ساقك حتى تثبت، وكأنت؛ يردُّون نفسَك إلى نفسِك.



(٤)

ومنهم من إن استندت إليه، عرفت أنك كنتَ قبله مولودا بعكازَين إلى أن جاء فنبتت لك قدمان.

(٥)

ومنهم مَن إن استأنسته آنسك فلم يشغل نفسه بسواك، وإن تناسيت به ما يؤسيك نسَّاك مأساتك فوجدت فيه سلواك، وإن التمست مِن سراجه قبَسا أهداك السراج واكتفى لنفسه بالقبَس.

(٦)

ومنهم من يضيؤك إن انطفأت، فإذا أضأتَ انطفأ هو ليراك الناسُ جميلًا وحدك؛ كشمسٍ تمنح القمرَ نورَها وتختفي هي ليطل بهيًّا في السماء بمفرده، ثم تنزل بين جموع الناس وتلفتَ إلى السماء عيونهم؛ تقول: انظروا.. ما أجمل القمر!

(٧)

ومنهم مَن تفر من سواد أشباح الآخرين إلى ألوان الجمالِ الملخصة في طيفه.



(٨)

ومنهم مَن إن أمِنْتَه على نفسك آمَنْتَ بنفسك.

(٩)

ومنهم مَن آنسكَ حتى أنساكَ كل نَفس سواك، وجردك من كل نفسٍ سواه، حتى تستوي نفسك ونًفسه؛ فتركنَ إليه لتجد روحك، وتركن إلى روحك حتى تجده.

(١٠)

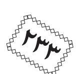
ومنهم من يؤنسك سناه، ولو نساكَ الناس وحدَه لا ينساك ولا تنساه، في مرتبةٍ تجعل الجميع دونه بشرًا، وتجعله وحدَه ملِكًا وملَكا ومُلكًا.

(١١)

ومنهم مَن حين تشتاق إليه تجد نفسك تشتاق إلى جزء منك، إلى كُلك، تجدك مشتاقًا إليك.

(١٢)

ومنهم مَن إذا جاءك كان وِجاءك، وإذا قارَبك كان قارِبك، وإذا فاتك كان وفاتك.



(١٣)

ومن الناس من إذا رافقك رفق بك، وإذا فارقك فرَّقك.

(١٤)

ومِن الناس مَن لا تراهم بعينيك؛ وإنما ترى بهم عيناك.

(١٥)

ومن العيون مَن إذا شافَتك شفَتك.

(١٦)

ومن الأرواح من إذا ملكَتْك ملأَتْك، وإذا آوَتْك داوَتْك، وإذا أحبَّتك أحيَتْك.

(١٧)

ومِن الأرواح مَن إذا شملتك جملتك وإذا كفلتك كفت لك وإذا حلَّت بك حلَّتك.

(١٨)

ومن الأرواحِ من إذا رأَتْك رَوَتْك، وإذا أبصَرَتك بصَّرتك، وإذا لقيتك جلَبت إليك في عينيها نفسك المفقودة.



(١٩)

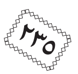
ومن الناس من كان إذا حضر أهلَك، وإذا غاب أهلَك.

(٢٠)

مِن الناس جميل الروح، خفيف الأثر، لطيف الود؛ لا يعاتب مهملًا، ولا يهمِل معاتبًا، إن رأيتَه روَى عينيك، وإن اشتقتَ إليه روَى قلبَك، لا يتكلَّف في السؤال، ولا يجيبُ على مضَض؛ تحبُّ أن تطَمئنَه وتطمئنُّ بحبه لك. حريصٌ في كلامه ألا يجرح لك شعورًا، وصادقٌ في فعله ألا يشغل لك بالًا.

مِن الناس ملائكةٌ.. يبسطون لك أجنحتهم.. جحودٌ إن كسرتها.






نحتاج إلى..

(١)

بالتأكيد لا أحد يحب أن يقطع الطريق منفردا؛ لا أحد يحب أن يسير في الظلام وحده يتعكز على قدميه ويتحسس الجمادات ويستند إلى الجدران، لا أحد يحب أن يتسلق الجبال بلا حبال تؤمنه وتطمئنه، لا أحد يحب عبور الشارع أعمى بلا ساحب ولا صاحب.

لكنه يُفضل أن تتجرح قدماه وحيدًا، بدلًا من أن تَسلم قدماه ويتجرح قلبه إلم يكن رفيق الطريق مناسبًا، يُفضل التعلق بيدٍ واحدةٍ في نتوءات الصخور، بدلًا من التعلق بيدين في كومة رمالٍ تتفتت، يؤثر الجمادات الصماء على الأحياء الأصمين، يتعثر في الحفَر بطريقه الصحيح، بدلًا من الهرولة في طريقٍ يؤدي إلى اللاشيء.

إنَّ أحدَهم حين يأتي؛ إما أن يكون كرةً من حديد في أعقاب أقدامنا تسحبنا إلى الأرض أكثر، وإما أن يكون جناحي ملاك يطيران بنا إلى الأعلى؛ فإنَّ الوحدة الصادقةَ خيرٌ من الأنس الكاذب.



نحتاج إلى..

مَن يدفعنا إلى الحلم، وينبهر بخطواتنا البسيطة؛ كأم ترقب الخطوات الأولى لصغيرها الوحيد، وتصفق له كلما أوشك على الوصول.



(٢)

إننا في حاجةٍ إلى مَن يعرف كيف يسكب نفسَه في قدورنا وأقدارنا؛ إلى مَن يتشكل حسب هندسة الفراغاتِ فينا؛ فيملأنا بمرونةٍ بين الزوايا والأضلاع، حتى وإن كان داخلنا مخروطٌ أو مكعبٌ أو كرةٌ، فيتخذ الشكل الموجود، ولا يَشترط علينا شكلًا يطلبه هو فيكسرنا.

إننا حين نرضى بالعسل ليُحليَ دواخلنا، فنحن في المقابل نحفظ محتواه؛ إذ إنَّ العسلَ بلا قِدْرٍ يحفظه، كالماء، والقدر بلا سائلٍ يحويه كالبيت الخرب؛ ولذا فإن كلينا لكلَينا حِضن وحمىً، ومتى تَهدَّدَ أمنُ أيٍّ منا ففقد الأمان، فإن الأَولى بنا محتوَىً آخر، والأولى به محتوٍ آخر.

إننا نحتاج إلى مَن يملؤنا بالحب ويكلؤنا من الحرب، فأَنْ نعيش فارغينَ أكرم لنا من أن نمتلئَ بالتراب.





(٣)

كلٌّ منا يريد أن يكون بطلًا في حياة أحد ما؛ أن يكونَ محور دائرةٍ ما، أن يكون كوكبًا مُهمة قمرٍ ما أن يدور حوله وحده، أن يكون جسمًا كاملًا مُهمةُ مِرآةٍ ما أن تعكسه منتظما بلا انكسار.

أن يكون أسخف ما يحكيه هو أعظمُ ما يستمع إليه أحدهم، أن يكون سقوط رمشٍ في عينِه أهم لدى أحدهم من سقوط إمبراطورية في زمانٍ ما أو سقوط جسرٍ في مكانٍ ما، أن يكون ثقب في جوربه عند أحدهم أهم من ثقب الأوزون.

إن كلَّ ما يحتاجُ إليه واحدُنا أن يجدَ في أحدهم أكبرَ عددٍ مِن الأصفار، فيضمها إلى يمينه، ويشعره بأن أصفاره كانت عارية من القيمة قبل أن يجده، وأنَّ الواحد كان وحيدًا ضعيفًا قبل أَن تملأ خاناتِه الخاليةَ الأصفارُ الموجَبة.



(٤)

كلُّ ما أريده هو أن أتسلل مع الهواء إلى رئات الذين أحبهم نسمةً باردةً تلطف دواخلهم المتَّقدة، وربيعًا نضرًا وسط خريفهم الطويل، وشمسًا دافئةً تصهر الجليد القطبي الذي في صدورهم، وأُنسًا ينفي عنهم وحشتهم، وسرورًا دامعًا يُربت على شجنهم الذي يسرونه.

أريد أن أخبرهم أنني -واللّهِ- أعتذر لهم نيابةً عن العالَم، عن الكون، عن الأقدار، عن وجع القلوب، وظلام الدروب، عن القطارات التي تفوتهم، والقطارات التي تدهسهم، والقطارات التي أضاعت حقائب أعمارهم، وحقبها.

أريد أن أحملهم على جناحيَّ الطائرين عاليًا، لأقول لهم: إن الرصاصةَ التي تشعرون بها في أفئدتكم ليست رصاصةً وإنما مجرد رأسها، أما جسمها المتفجر كله فمستقرٌّ فيَّ، ينازعني للعبور.

إنني أعتذر لكم نيابةً عن القدَر الذي تسلل على أطراف أصابعه، ثم خطف فريسته غدرًا من بينكم وأنتم آمنون،



حتى إذا اطمأنَّ أنه سلب منكم أغلى ما تملكونه، صفَقَ الباب بقوةٍ، وانصرف.

أعتذر لكم نيابةً عن السجون والشجون، عن الأسوار ومحاصرة الأبصار، عن الشوك والشوق، عن الحب والحرب، عنا وعنكم.. يا رسلَ العلا في أرض السافلين.

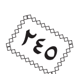


(٥)

ليتنا نستطيع تقاسم الآلام مع الذين نحبهم؛ فنحمل عنهم تسعة أعشارها، ونترك لهم العشرَ -من بابِ أنَّ لهم منها نصيبًا-، آهٍ لو كان بأيدينا أن نغرس في صدورهم قلوبنا؛ فتفدي ضلوعهم من التوجع، وتبرد أفئدتهم من الحرارة، آهٍ لو كان في استطاعتنا أن نخبئ في دواخلنا مَن نحيا في دواخلهم، آهٍ لو كان بالإمكان أن نتعب ونَنصب ونُغلَب بدلا منهم؟

لو كان بأيدينا أن نحمل نحن عنهم كل هزائمهم؛ لانتصرنا.

إننا نريد أن نجري فيهم بدلًا من الدماء، وأن نحوي دماءهم بدلا من الأوردة، وأن ننبض بدلا من الأفئدة. إننا نريد أن نَهِبهم الزهور ونحتفظ بالأشواك، أن نهبهم اللقيا ونحتفظ بالأشواق، أن نهبهم البدور ونحتفظ بالظلام، أن نهبهم الجسور ونحتفظ بالحطام، أن نهبهم أرواحنا الخفيفة ونحتفظ نحن بأرواحهم المثقلة.



إننا نريد أن نسير على عكازاتهم.. ثم نجمع لهم من شغاف قلوبنا بدلًا منها أجنحةً تطير.



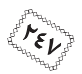
(٦)

إنَّ كل ما نحتاج إليه هي الكتف التي حين نستند إليها تغنينا عن أحضان العالمين، إلى العين التي تنظر إلينا مِن الزوايا التي يهملها الجميع، إلى مَن يسكن الأركان المهجورة في دواخلنا ثم يسرج فينا قلبَه لينير عتمة الغربة وظلمة السفر وزحام الراحلين.

نحتاج إلى من يملأ الفراغات ويفرغ كل الممتلئ باللاأشياء، إلى من يتسع لنا صدره حين تضيق الأماكن، ويَفتح لنا قلبه حين توصد أبواب المساكن، وتحملنا قدماه حين لا نقوى على السير، ويُنبت بين ضلوعنا أجنحةً، تطير بنا حين تهِن الأقدام.

نحتاج إلى الراضين بأقمارنا، الواقفين في الزاوية الأخرى من الكون يراقبون جانبنا المعتم، وهو في عيونهم أوضح ضياءً من ضياء الشمس.





(٧)

أن يُنظَر إلينا من الزوايا الحرجة، ويُشَدَّ على أيادينا بدون شرطِ ظهورِ تشققاتها -فربما تشققت من الداخل-، وأن تُمسَحَ وجوهنا بدون شرط ظهورِ دموعها -فربما بالعينين نزيف داخلي-، وأَن نُضَمَّ بغير الشتاء -ربما هناك خريف بالضلوع-، وأن يلمع الانبهار بنا في عين ما -حتى وإن كانت لا ترى أو إن كنا لا نُرى-، وأن يقال لنا: «أحبك» بلا شرطِ أن نقولها أوَّلًا -فربما قلناها داخلنا قبل أولًا.. بأوائل-.

إنَّ كل ما نحتاج إليه هو الحب.




سيدتي...

(١)

ورغم ذلك كله، ما زلنا نستعين بالحب على الحرب وبالشوق على الشوك وبسعة العيون على ضيق الصدور.

ما زلنا نستعين بمن يحمل همومنا فوق كتفيه، ويداوينا بين ذراعيه، ويضمد جراح الأقدار بأقماره، ما زلنا نلجأ إلى الشموس لتدفئ سطوحنا الباردة وتضيء عتمة دواخلنا بنورها الرحيم.

- وهل ما زال فيك قلبٌ يحب؟

- إن الحب لا يكون حبا إلا إذا خرج من قلبٍ موجوع بالكره، كما يخرج الضيُّ من القمرِ المظلم، مثل كل فاقدٍ للشيء حين يعطيه، مثل كل الذين يموتون من المرارة، ثم حين ينالون الحلاوة.. يهبونها.

- وهل ما زال فيك سببٌ أن تُحَب؟

- وهل يُحَبُّ إلا الذين لا يملكون السبب؟ وهل تذوب القلوب إلا في الأسئلة التي بلا إجابات؟ وهل يكون الحب ذو

الأسباب حبا؟ إنني أريد أن أَحَب وأنا لا أملك أي شي، مِمن لا تبحث عن السبب؛ فأملك كل شيء.

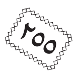


(٢)

هذه هي الرسالة الأولى التي أكتبها إليك؛ أخبركِ في مطلعها أنني مُثقَلٌ بألف واقع، ومتعَبٌ بألف حقيقة، ومنهَكٌ بألف مسافة، ومغرَمٌ بصورتك في خيالٍ يجعل الواقع والحقيقة والمسافة أصفارا.

أكتب إليك ولكِ وفيك وبكِ؛ لأحملك أمانةَ تغيير قيمة الأشياء وبعثرة قوانين الطبيعة والتمرد على النواميس؛ لتكوني أنت القيمة والقانون والناموس؛ فإن كانت أقدارنا البحر تكونين أنت أمواجه، وإن كان سبيلنا القمر تكونين أنت ضياؤه، وإن كان الحب مبنانا تكونين أنت معناه.

لا الزمانُ ولا المكان ولا الكيف معروفين. ما أعرفه يقينًا أنَّ كل هذا التعقيد لن يتفهمه ببساطة ولن يحله بهدوء ولن يجمِّله بذوقٍ ولن يسكِّنه بصبرٍ إلا واحدةٌ لا أعرف اسمها ولا رسمها، أكتب إليها رسائلي مِن قبل أن تأتي، بيومٍ أو بعامٍ أو بعقد، وأناديها في مطلعها: سيدتي التي لم تأتِ بعدُ.



أكتب إلى تلك التي لا أعرفها، المجردة في خيالي من كل اسم وجسم ورسم ووَسم، المفرغة من كل مبنى والممتلئة بكل معنى، الساكنة في خيالي وَحدَه، والمبددة مِن خيالي كلَّ وحدة، المعروفة لديَّ، والمجهولة بين يديّ. اليَوم أكتب، وأنا لا أخشى تعطل البريد أو جفاف الحبر أو قصف القلم. اليوم أحبُّ، وأنا لا أخاف هجرا ولا هجيرا. اليوم أشكو، وأنا لا أخاف وَهنا ولا هوانا. اليوم أبصر، وأنا لا أخاف العمى. اليوم أبعَث من جديد، ولا أنتظر إلا أن ينفخ اللّه فيَّ روحكِ؛ فأراك.

(٣)

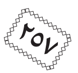
سيدتي التي لم تأتِ بعد..

الليلة رأس السنة؛ لم أجد وقتًا أنسب من هذا لأكتب إليك رسالتي الأولى، بعد سنتي الثقيلة التي مضت خلف سنوات أثقل منها، وفي مستهل عامي الجديد الذي يبدأ، خفيفًا بك، وبعده أعوامٌ أخفُّ حين تحضرين.

إنني لم أكن أكترث من قبل للحسابات والأعوام ما دمتُ أتجرعها قطعةً واحدةً بلا ملح ولا سكر، لكنني الآن أعدكِ أن أهتم حتى بالثواني إن أتيتِ.

أما بعد، طابَ عامي الجديد بك وإن أتيتِ بآخرِ ساعة فيه، مبعوثًا مِن بعد موت، وحاجًّا مِن صفري إلى واحدك الصحيح.





(٣)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

أشكو إليك وحدتي الكاملة؛ وإنني لم يكتمل لي شيء في الدنيا غير وحدتي؛ أعبر الأماكن المشرقة وحدي فتنطفئ، وأعبر الأماكن المظلمة وحدي فأنطفئ، وإنا والله كالبدرِ أخاف من الظلام، ولولا غياب شمسكِ لَما أظلمت.

إنني أخشى الأماكن الجميلة أن توحِشَ إن عبرتُها وحدي، وأخاف من النور الذي لو انفردَت به عيني لعميت، وإن تقاسمته عينانا أشرقتا.

أما بعدٍ، فإن ضالتي الأُنس، وعلتي الوحشة، وواقعي الوحدة، وأنسي المجهول الذي أشكو إليه الوحشة والوحدة.. هو أنت.



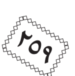
(٤)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

أكتب إليكِ وأنا في سرير الغربة الذي تغير عشرين مرة في أربع سنوات، وإنه لَقاس، ولا علاقة لقسوته بالقطن الذي فيه ومدى جودته وإنما العلاقة كلها ملخصة في الذي يقطُنه ومدى حاجته. إنه ليس سريري الدافئ الذي عرفته منذ طفولتي إلى أن هُجرت منه؛ بل كسرير المستشفى، وأنا كمريض بقسم الرعاية المركزة، غير أنه لا طبيب ولا ممرضات.

أبكي الآن وأنا أكتب إليك، ولا أعلم لمَ أشتكي إليكِ وأنا لا أعرف اسمك حتى! لكنه جنون القلبِ حين يخلق حبيبًا قبل أن يكون، وجنون القلم حين يكتب جوابًا، خانتا المرسَل إليه والعنوان، فيه، فارغتان.

سلامٌ عليكِ في أي مكانٍ كنت، فقط أردتُّ توثيق اليوم الذي أرسلتِ فيه إليَّ باقةً من أنَفاسك، وددت إخبارك أن أنفاسك وصَلت بخيرٍ، وكانت هديةً دافئة منك تليق بشتاءٍ



قاسٍ كهذا، جعلَتني أبكي فأكتب إليك قبل النوم رسالةً من فوقٍ سرير الغربة، أعلل فيها بكائي.

والحقيقة أنني لم أبكِ من فراش الغربة، لكني بكيت لأن رأسي بدأت تشعر بوسادة الوطن.



(٥)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

حين وجدتُّ فؤادي فارغًا قررتُ أن أملأَه بقلبٍ شعرت دومًا بقدومِه وإلم أره؛ كالهواء الذي يمسح العرق من جبهتي ولا أراه، وكالرياح التي تتقاذفني بين الاتجاهات الأربعة ولا أراها. يقولون إنّ كُلَّ جميلٍ يُحسُّ ولا يُرى.

إنني وجدتُ ضلوعي باردةً فقررتُ أن أدفئها بشوقٍ جارفٍ إليكِ، وأنا لم ألتقِ بكِ بعد، تمامًا كشوقِ الأولياءِ إلى الجنةِ، وشوق الشهداءِ إلى الموتِ، حين يشتاقون إلى الغيب، ويؤمنون به كأنهم يرونه. يقولون إنَّ كلِّ غيبٍ تؤمن به، سيؤمنك وتأمنه، وكل غائبٍ تشتاق إليه سيحضر.

لأنني وجدتُّني لا أحب ولا أكتب؛ أحببتُك وها أنا ذا أكتب إليك. يقولون إنَّ الرسائل الملقاة في البحرِ يوصلها الموجُ أسرع من ساعي البريد.





(٦)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

لم أكتب إليكِ منذ مدة، ليس لانقطاع إلهام ولا من قلة كلام، لكنني لم أكن أمتلك الجرأة بعدُ لأشكو إليكِ حالي؛ أشكو إليكِ صراعي الأزلي الأبدي بين القلب والعقل؛ إذ يقول لي القَلب: تصبَّر بها، ويقول لي العقل: تصبَّر عنها.

وأنا تعبتُ من التشتت بين الأسود والأبيض فأخذتُ من كلٍّ منهما نصيبًا لأراضيَهما، فلم أَجد مزيَجهما رماديا؛ وإنما ورديًا! تمامًا كهذا اللونِ الذي أجده على خدَّيك كلما فكرتُ فيكِ، حين بدأت ملامحك في التشكل، وبوادرك في الظهور؛ حتى كدتُّ أبدأ رسالتي إليكِ اليوم، بـ«سيدتي التي بدأت في المجيء».



(٧)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

غيرتُ رأيي، لا تأتِي الآن، فإنني اليوم رأيتُ طاولاتِ المقاهي كأنها المقابر، وكراسي العشاق كأنها المراثي، وبطاقات الحب كأنها الشواهد.

رأيتهم يَسقي بعضُهم بعضًا كؤوس الشوق، وفؤوس الشوك لم تزل بعدُ في رؤوسهم، فيتصافحون كذبا، ولا يُفصحون بأنهم كذبوا. رأيتهم يتعانقون وهم يتطلعون إلى المادة لا إلى الروح، يتسامرون وهم يريدون الجسم لا الاسم، يتهافتون على الحب كما يتهافت الذباب على العسل! وإنني لأَحَب إليَّ أن نعيش وحيدين على الصبار، ولا نشارك الذبابَ زحامه أبدًا.

سيدتي المقدسة، تأخري قليلًا، عن زمان الحب المبتذل.





(٨)

سيدتي التي لم تأت بعد..

سلامٌ عليك، كهذا السلام الذي أبحث عنه فلا أجده إلا في جوارك؛ شاكيا إليك الجورَ الذي يجري ورائي ليجاورني كلما خرجت من مجالكِ، هاربًا لديكِ من ظلمة الكون إلى ضيائك الساكن، وفارًّا بين يديكِ من كوابيسي وواقعي إلى حِلمك وحُلمك، وحلمي الأبيض متورد الخدين.

يلومون عليَّ أنني حالم، ويستنكرون الحلم، ولا يعلمون أنني أعيش كابوسًا طويلا أسود من واقعهم، ولا أفيق منه إلا ساعةً أكتب فيها إليكِ، كي لا يتحلل جسدي.. ثم أنتهي فأعود إلى قبري في هدوء الليل، والعاذلون نيام.



(٩)

سيدتي القديسة..

إنَّ الحب الذي نزرعه بأيادينا وهي متشققة حبٌّ ملائكي؛ حيث يسكن كلَّ شقٍّ فيها ألف قصة؛ تحكي عنا أننا لا نفلت الحبال وإن حزَّت الكفوفَ وجرحتْ الحروفَ.

أما بعدُ فإنَّ القلب الذي قَبِلَ الحب نفاه الكرهُ، وقبل الأنس أذابته الوحشة، وقبل الشوق أعياه التبلد، وقبل الفوز كواه التجلد، وقبل الوصل أذبلته الوحدة، وقبل تجليك تجرع المرارة ولم يجد الحلاوة.. هذا المسكين الذي افتأدَ كثيرًا وافتقد كثيرًا، أخيرا، وجدك. وهذا المسكين الذي وجدك لن يتخلى؛ لأنه إن تخلى فلن يجد إلى الأبد.



(١٠)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

كعطرٍ خفيف، كرائحة القهوة والكتب، كمراقبة طفلة عمرها ثلاث سنوات تمشي مع أمها، أو تمشي أمها معها كأنَّ الصغيرة هي من يقود السير، كسماعِ ضحكة بريئة من ملاك جاء إلى الدنيا مؤخرا، كموسيقى تَسمعك قدرا وليس أنت من يسمعها، كصوتٍ ملائكي يبقى في أذنك حتى يتعتق، كصاحبِ صوتٍ رخيم يضحك، كصوتِ الموج يضرب الصخور، كرائحة المطر، كتنهيدة طويلة سمَح وجودُك لصاحبها أن تفلت منه رغم محاولته كتمانها، كلمعة في عينين تحاولان ألا تلمعا، كبيت شعر تحفظينه مع أنك لا تهتمين بالشعر، كحائط قديم تُلامس أناملُك حجارته ولا شيء في نفسك منه إلا أنك تحبين مصافحةَ الزمان، كرسمة ترينها من الداخل لا من البرواز، كواجهةِ مسجد قديم تحاولين قراءةَ المنحوت فيها بخط الثلث، كنسمة باردة لم تجعل جسمكِ يرتجف قبل استئذان قلبك.



ككل شيء منفرد، مقدس، لا ثاني له، ولا ناطق في حرمه أحدٌ.. وجدتُّك.



(١١)

ها أنا ذا، أكتب إليكِ كما طلبتِ ونحن على شفا حفرة من تردد الصمت وصمتنَا عن الردِ، إذ إن كلا منا خرج إلى الكون وحيدا مجروحا، فوجد في صديقه أنسه وسلواه، إلا أن الجرح بالجرح يكون أكثر حساسية وعرضة للألم، لدرجة لو أن ذبابةً لمسته لصرخنا معا، وتعلمين كيف الذباب لحوحٌ لا يمل.

فلندَعُ الله الطبيبَ ولندَع الجراح تلتئم، على الأقلِ حتى إذا استند أحدُنا إلى الآخر لم يسقط كلانا، وإذا اشتدَ في ليلةٍ جرحَه وجد صاحبه متفرغًا لتضميده.

سيدتي، إلى أن نلتقي على سطح الكوكب يوما فإنني ألتقي بكِ على سطح الورق كل يومٍ، لأغني لك:

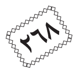
كلانا تفانى لأجل كلينا..

وحن الحنينُ حنانا إلينا..

وجاء الجمالُ جميلَ المجيءِ..

وحان التلاقي فهلَّا أتينا؟!





(١٢)

سيدتي..

بَلَغكِ أن العالم مشتعل والحروب تقرع طبولها والأحداث تتوارد كأننا ندنو من القيامة، وأنا بلغَني أن العالم «الذي أعرفه فيك» ساكنٌ هذه الأيام يحاول أن يقابل فوضى الخارج بهدوءٍ في الداخل كأنكِ محور اتزان الكون، والحقيقة أنكِ كذلك.

أما بعدُ فإنني قدمت على بطاقة لجوءٍ إليك؛ حيث أكون منفيًّا من الكابوس إلى الحلم، ومن الظلام إلى النور، ومن الدنيا التي يعيشون فيها جميعا إلى العليا التي أحيا فيها وحدي.

أخبرني جنودُ الجمال الواقفون على شغاف قلبكِ أنَّ طلب لجوئي قيد البحث، ورغم أنَّ يد الرئيس مرتعشة مثل يدِ مقدم الطلب، فقد سمحوا لي بالعبور للإقامة في



أراضيكم الدافئة حتى يصدر القرار ويُوقَّع المرسوم -أو يُرسَم الواقع-، فأرجو ثبات أياديكم؛ لأنَّ التوقيعَ كلما كان واضحًا، كان أيسر على بوابات الدخولِ تصديقه والإيمان به.



(١٣)

سيدتي..

إنني كلما هربتُ منكِ وجدتني ببابِك، وكلما ابتعدت عنكِ صرتُ منكِ أقرب، وكلما قررتُ التَعقل جُننتُ فعدتُّ أحبكَ.

لا أعرف مدى تأثير وجهٍ لم أره، لشخص لا أعرفه، كأنه تمرد على نواميس الكونِ، وقواميس المعانًي؛ ليثبت أن الجمالَ يكون في عين الناظر لا في عين المنظور إليه.

لا أعلم متى ولا كيف ولا أين سنكون لكنني أحببت هذا التيه الذي يقضي إلى الهدى على غير موعد، كضبابٍ نسير فيه والأرض من تحتنا أشواك نشعر بها ولا نراها؛ فنَواصل المسير رغم الجراح لأننا في ضباب، ولأنه لا عودة، ولأننا حين صرخنا من كثرة ما أدمينا وجدنا أقدامنا، على أبواب الجنة.





(١٤)

سيدتي ساكنة الأقمار..

كنتُ أشكو إليكِ وحدتي في المسير، فشاركتِني قدميكِ، فاستغنيتُ عن عكازي كأن قدرتكِ نَفَت عجزي، وكنت أشكو إليك حيرتي في المصير فشاركتِني قراري، فاهتديتُ مِن ضلالي، كأن استقرارك نفى اضطرابي، ووضوحك نفى حيرتي.

سيدتي مسكنة الأقمار..

إنني ممتنٌ، أنني لا أسافر وحدي؛ وإنما في كل مرة أدفع ثمن تذكرةٍ واحدة، لروحين، على كرسي واحد. إنني ممتنٌّ، إن عشتُ وحدي ثم متُّ وحدي، أنك اقتنصت بين الوحدتين أنسًا ملأتني به وحدك. إنني ممتنٌّ إنْ عشتُ معك ثم متُّ معك، أنكِ اقتنصتِ بين المَعيَّتين لحظةً قلتِ لي فيها: لستَ وحدك.



(١٥)

سيدتي..

أعود أكتب؛ لأنني لا أملك بث الموتِ في قلم يبث في الحياة، ولا أملك حبرَه الذي يكتب بي ولَستُ أناً من يكتب به، ولا أملك نفسي التي منذ أول يوم وهي لديك، ثم حين أردتُّ استردادها ساعةَ الهروب أعطيتِني بدلاً منها نفسَك؛ فصار قيدي بحلقتين؛ إحداهما في يدي، والأخرى في يدك.

ساد يسود: يعمّ ويشمل. ساد يسود: يقود ويرأس. ساد يسود: فهو سيد وهي سيدة، وهما اثنان شمل كلٌّ منهما الآخر حتى تملَّكَه، وقاد كلٌّ منهما الآخر حتى صار جيشه، وابيضَّ فؤاد كلٌّ منهما بقلب الآخر حتى صار الأسود لون الغياب بينهما، إلى أن يلتقيا.

أعود؛ ليس لأنني لا أملك إلا العودة؛ لكن لأنني أريدها.





(١٦)

سيدتي..

فررتُ منكِ إلى الواقع، فوجدتني كآدم حين هبط من الجنة، أغرتني شجرة اليأس كما أغرته شجرة الأمل، غير أنَّ شجرتي كانت بلا أوراق ولا ثمار ولا ظلال، وأنني لستُ نبيًّا.

ارتكنت إلى العزلة بعد أنسي بكِ، فوجدتها عزلة الروح عن الجسد، وعزلة الرأس عن الجسم، وعزلة الدم عن الأوردة. حاولتُ اختيار الحب، بالمعايير الفارغة من المجازفة، وبالترتيبات الخالية من المصادفة؛ فوجدتني لا أستطيع. وعرفتُ أن الحبَّ هو الصياد والشبكة والبحر معًا؛ إن أفلتنا من يديه، سقطنا في شِباكه، وإن أفلتنا من شِباكه، سقطنا في بحره، وإن أفلتنا من بحره متنا.

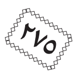
ها أنا ذا أعود إلى الحلم متعلما من كل الدروس السابقة أنَّ الحلم لا يكون حسب إمكانية تحقيقه، وإنما حسب درجة إيمان الحالمين به.

أعود.. لأكتب إليك.

أعود.. لأكتب.

أعود.. إليك.





(١٧)

تعلمين؟

ما زلتُ أبحث عن الحب؛ إذ إن كل شيء يبتدئ به، ولا شيء به ينتهي. ما زلتُ أنظر في العيون لعلي أجد ضالتي، تكون غريبةً مثلي، غربتُها أكبر من غرابتها، تبحث هي الأخرى عن ضالتها، غريبًا مثلها، تجد فيه الحب الذي به يبتدئ كل شيء، ولا ينتهي؛ حيث مجموع الغريبَين أنسٌ، ومجموع المغتربَين وطن.

ما زلتُ أراقب الأرواح الطائرة في غلافٍ واحدٍ، المجتمعة في الطبقةِ نفسها من الهواء؛ لعل إحداها تخرج على النظام، متحايلةً على الجاذبية، تبحث عن فلكٍ آخرٍ يراقبُ الأرواح الطائرة، يرتقب روحًا تتمرد على الجميع؛ لتسقط بين يديه، تدور فيه وحده، وتدور فيه وحدها.

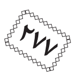
ما زلتُ أهمسُ بأبياتي بصوتٍ خافتٍ لا تسمعه الآذان، عدا أذنٍ تدنو منه بمفردها، تختلس السمع باحثةً عن قلبٍ



يكتب لها، بلسانٍ ينطق اسمها حرفا حرفا، يكون ملكا لها، بكسر الميم، وفتح الميم، وضمها. أقصد الميم.. أو هي.

ما زلت أبحث عن.. مَن.. تبحث عن.. مَن...





(١٨)

إلى الأقرب..

التي تعرفني ولا أعرفها، ولا أقرب من المجهول، إلى عالَمي العالمة بي، ولا أعلَم ممن في علم الغيب، إلى الأحن، ولا أحنَّ ممن نشعر أننا بين ذراعيه قبل أن نراهما، إلى قدَري، ولا أجمل ممن تحجَّب بالقدَر.

إلى التي تعرفني؛ بمعنى: حفظها مواعيد استيقاظي مفزوعًا أبحث عنها في جوف الليل، وعلمها بعدد دقات قلبي في الدقيقة الواحدة من ساعاتِ تفكيري فيها، وحنينها وحنانها حين تترفق بي لأنني بين فكَّي زمانٍ قاسٍ، ودفاعها عني حين تخونني الكلمات ولا أقوى على الحديث، ووقوفها في ظهري في اللحظة ذاتها التي تقف فيها بحضني، ثم حين أسألها أنَّى لواحدٍ أن ينشطر إلى اثنين يطوقانني؟ تقول: هناك حضن، وهناك حصن، والفرق بينهما نقطة؛ هي أنت.

إليكِ أنت تحديدا من بين الآلاف التي تسير في غياهب العالم الأسود؛ إنني أراك بوضوح، ملكة ذات جناحين، ترتفعين بهما فوق العالم، تشيرين إليَّ من بعيد، وأفهم بالإشارة، أنك لم تنسي الميعاد، لكن الطريق مزدحمة.



(١٩)

نعم، إنني مثقَل. آتيكِ وفي جعبتي غربةٌ وملاحَقةٌ وسجن ومجزرة، ثم أطلب منك أن تكوني لي تأشيرة سفر، وتذكرة عودة، ومخبأً آمنا، ومهربًا إلى الحرية، وبيتًا، ووطنا.

نعم، إنني متعَب بقضيتي، منهَكٌ بحملها الثقيل على كتفي، ولا أملك إنزالها، لأنني إن انحنيتُ لأُسقِطَها سأظل محنيًّا ولن أستطيع الارتفاع إلى الأبد، وبين جنبيَّ انتفاضة لا أملك إخمادها، لأنني إن أطفأتها سأحترق أنا، وفي قدميَّ حقولٌ من الشوكِ لا أملك نزعها، لأنني إن نزعتُها فلن تنبت مِن عنقي غصون الزيتون ولا أشجار البرتقال.

نعم، إنني مثقَل. لا أطلب منكِ رفع الثقل عني؛ وإنما أن تكوني لي جناحين.



(٢٠)

في الحقيقة.. إنني حين أبحث عنكِ؛ أقصد البحث عني فيك، كمن يبحث في مدينة أشباحٍ عن كسرةِ مرآةٍ يرى فيها ملامحه بدلًا من كسرة خُبزٍ يضعها في فمه؛ ليعيش.. وإنَّه حين يفعل ذلك فربما لأنَ مفهوم الحياة عنده مختلف.

يقولون إن الحب يجعل من كل حبيبين توأمين؛ يُغير شكليهما على المدى البعيد حتى يكادا يتطابقان، وإنني لا أرى تفسيرًا لهذا غير أن المحب يكون كمن يرى وجهه في البحيرة كل يومٍ، يشكو إليها شجنه المتساقط مع الأوراق في حزن الخريفٍ، ثم تتجمد حتى يأمن لها فيمشي فوقها في ليالي الشتاء، فيرى وجهه فيها أوضح، ثم تعالجه على حوافها بالنقاهة طوال الربيع، ثم حين يتعافى أخيرا، يكافئ ذاتَه ويكافئها، بالنزول إليها عاريا تمامًا مع حضور الصيف.

كأنَّ المحب حين يصدق؛ يرى في محبوبه الفصول الأربعة، فيرى في الفصول الأربعة نفسه.

إننا حين نحَب.. نرى أنفسنا، وحين نرى أنفسنا.. نُحِب. إننا حين نُحب.. نرى.





(٢١)

إنني أراك من الطرف الآخر، لا أرى ملامحَك بوضوح، لكنني أعرف أنها أنت، بعينيكِ اللتين لا أعرف لونَهما لكنني أعرف لوني فيهما، وبابتسامتَك التي لا أعلم مدى اتساعِها لكنني أعرف كيف أصنعها، وبأنفاسكِ المتهدجة التي لا أعرفُ سرعتها، لكنني أعرف كيف أحولَها إلى تنهيدات.

إن الذي يُصبر كلا منا على بحثه عن الآخر؛ أنَّ الذي يجمعنا متاهةٌ واحدة، ونُدرك أننا -بلا قصد- سنتعثر في النقطة ذاتها، ذات يوم، وحينها، سيرانا الناظرون من الأعلى، بحد ذاتنا، قطعَتَين من قطَع المتاهةِ، التي كانت متاهةً، قبل لقائنا.



(٢٢)

سيدتي..

إنني أكتبُ إليكِ على مرأى العامة، واعتذاري إليك أنني سأقرأ لكِ يومًا ما على مسمعكِ وحدك. لا يَفهم الناس أنني أخاطب مَجهولًا في علم الغيبِ، لكن يكفيني فهمي وفهمك أنَّ كلًّا منا يُحب طيفًا لا يعرفه، لكنهما يلتقيان كل ليلة.

أتيتكِ مخذولًا، وإنني ما وصلتُ مرةً بعد قَرص النحلِ إلى كأسِ العسل، إلا وانكسرَت الكأس قبل وضعها على ثغري، فيسقط أملي أمامي، وتُجرَح قدماي بحطامه، وأُجبَر على العودةِ من الطريقِ نفسها ملسوعًا بالقرصِ، وموجوعًا بضياع الفرَص.

وأملي كله أنتِ؛ أنْ تمري بي وأنا على حافةِ نهر، أطَيب بمائه الزلالِ، قدميَّ الجريحتين فتزوريني كجزيرةٍ تتحركُ للغارقين حين لا يقوى الغارقون على السباحةِ لها.



(٢٣)

سيدتي..

إنني أصلح للحب، أشعر بذلك النور في داخلي، والذي يبحث عن قمركِ المعتم؛ ليسقط في حضنه، ويتمدد على سطحه، وينيره بجماله، ويتجمل بنوره، ويبعث فيه الدفء، ويدفأ في انبعاثه، ويملأه بنفسه، وتمتلئ به نفسه.

إنني -على ما فيَّ من كسور- قادرٌ على الوقوف إن ملتِ أنت، ومستعدٌ للانهيار تمامًا إن قُمتِ، وأملك من الحب أضعافَ ما ملك أحدُهم قبل ألف عامٍ حين جُنَّ عشقًا ثم مات شوقًا.

إنني أعرفُ ما يكمل النقائص، ويؤنس الموحش، ويبرئ الجراح؛ لكن أين المجروح الذي يبحث عنه طبيبٌ بداخلي؟ وأين الطبيب الذي يبحث عنه المجروح الذي بداخلي؟

إنَّ قدميَّ ذابتا من البحث، وعينايَ ابيضتا من التحديق، وجناحاي خارا من التحليق، لكنني ما زلت أقتات على ظلامكِ المجهول، وأراقب قدومك المشهود، وأتزود بحلمي

البعيد، وحينها سيستطيع كلٌ منا أنْ يتباهى بالآخر أمام الجميع، ونخبرهم أننا في الضحى، وجدنا، ما سجدنا، لأجله في الليل.





(٢٤)

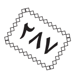
سيدتي..

إنني مغتربٌ وغريب؛ يقولون لي حين يرونني منهمكًا في البحث عنك: ابحث عن نفسك ووطنك أولا، فأمضي ولا أجيبهم؛ لأن أحدًا غيرك لن يفهم الجواب. والجواب هو أنني أبحث عنك لأنفيَ عني الغربتين، أو لأضرب حجرين، بعصفورٍ واحد.

إنني أبحث في بلاد الإفرنج عن قلوب الإسفنج؛ التي تمتصُّ كل الدموعِ حين نخبئ فيها عيوننا، وتمتص كل الكدر حين نلقي عليها رؤوسنا، وتحتوي أجسامنا المتلوية وجعًا في أحضانها.

إنني لا أبحث عنك كامرأة، وإنما أبحث عنك كمرآة.



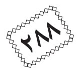


(٢٥)

حين أخبرك أنني أصلح للحب، فلا بد من قدومكِ تصلحين أن تكوني وطنا؛ بلدا صغيرا في روحك بدلا من الكبير الذي نفوني منه، وشمسا ساكنة في وجهك بدلا من الدافئة التي حجبوني عنها، ونهرا جاريا في لسانك بدلا من الذي حرموني عذوبته، وقمرا في عينيك بدلا من الذي خطفوا من عيني ضياه.

أن تكوني لي لغةً وأدبًا وشعرًا ونثرًا وتشكيلًا وخطًّا؛ بدلًا من جوفي الذي أحرقوا ما حفظته فيه من فنون. إنني أريدك ضمة واحدة تعوضني عن كل الكسرات التي ملؤوني بها.

أتيتكِ مخذولًا؛ أحمل فوق عنقي نصف ثورة، ونصف عورة، وسكينًا، ومقصلة، وفي قلبي غصة وغمة وغربة، وفي عيني عصابة، وفوق عينيَّ ظلام، وفي صدري تنهيدة مريضة تَطُول كل مرة ثم تنقطع قبل أن تكتمل، وتحت إبطي كتابٌ ممنوع من النشر، وجريدة محجوبة، وألف عقب سيجارة



منطفئة في جسدي، وإنني لا أريد منك إلا أنتِ بالكامل، لا ينقصك شيء؛ فيعود لي كل شيء.

إنني لا أبحث عنك في الغربة، وإنما أبحث عن الوطن فيك.



(٢٧)

مِن الآن أفكر في بيتنا؛ لا بد أن يكون صغيرا بالقدر الكافي للدفء، واسعا بالقدر الكافي للحرية، كخيمةٍ مشدودة في سوق عكاظ ينادَى فيها بالبيان ويصرح فيها بالغزل، كزنزانةٍ تحمل الوطن والقضية والشعار والهتاف والتاريخ على جدرانها. سنحرص على أن يشبهنا تماما في ألوانه وألحانه، في صمته وصوته، في حمله كلينا، وحملنا إياه.

في بلاد الغربة، لا نسكن البيوت وإنما نسكن ساكنيها؛ هي سقف وأرض وأربعة جدران، لا تعقيدات ولا مظاهر، وإنما شيء نألفه لأننا نُؤلِّفه ومكان يحبنا لأننا نحبه، أو كما يقول المتحدثون: «الحيطان لها ودان»؛ فإننا -الصامتين- نخلق من الجمادات أرواحا تجعلنا نقول: «الحيطان لها أحضان».

إنني أريدك كل الذي أفتقده؛ تحملين معك اللغة والكتاب والرواية والأغنية والقصيدة والمقالة؛ فيتلخص فيكِ الوطن، في أصغر صورةٍ له بوجهك، وأجمل صورة، بالآنِ ذاته.



(٢٨)

في الصور؛ لم أعتد ظهوري بالمنتصف تماما. دائما أترك مكانًا يسعك على يميني، في الظل. في المقهى الذي أحبه أجلس في صدر المكان، ظهري للحائط ووجهي تجاهك، حريصًا أن يكون ظهرك للناس ووجهك لي وحدي. في إشارة المشاة حين أعبر، ورغم أن الطريق خالٍ، أجعل نفسي جهة السيارات، وأعقد قبضتي في الهواء على الهواء؛ كأنه أنت. في الشارع، حين أقعد على الرصيف، أنظف بكفي ما يكفي لجلوس اثنين، ثم أجلس على الحرف، نصفي في الشمس ونصفي معك؛ كأنني أتقاسم نفسي بين شمس السماء وقمر الأرض.

في كل شيءٍ ثمة شيءٌ ناقص؛ أرى كل الأشياء مجرد بعض؛ كأن الكلَّ يأتي حين تأتين أنت؛ أرى البدر هلالا، والبحر بحيرةً، والنهرَ منخفضا، والليل قصيرًا، والشايَ خفيفا، والقهوة بلا رائحة؛ كأن كل شيء منذ أن خُلق.. ينتظرك؛ ليكون في أحسن تقويم.



وأنا كذلك أنقصك أو أنقصني؛ مجرد بعضٍ في انتظار الكل، مجرد نبضاتٍ قلبُها المنتَظر أنت.



(٢٩)

سيدتي ذات القلب الأخضر..

مِن هنا أراكِ موجوعة الزوايا شاكية الأضلاع، وأنا هنا أستأذن الرِياضيات في استثناءٍ لمسألتك الهندسية الوحيدة- أن تُحل في فرع «الجبر».



(٣٠)

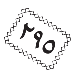
في المرة الأولى للقائنا، سأحاول ألا أتكلم كثيرًا، وأن أقلل عدد مرات الابتسام حتى لا أبدو أبلهًا على سجيَّتي، سأضع العطر الذي أضعه دائمًا والذي سيكون أجمل من العادة؛ لأنكِ ستشمينه، كأنَّك أضفتِ إليه عنصر الثبات لفترة أطول. سأرتدي قميصًا ما للمرة الأولى والأخيرة، ثم أحتفظ به لا أرتديه مجددا، لأحفظ له قدسيته؛ كأننا نصنع ذكرانا بأنفسنا، رغم أنه اللقاء الأول، لا أكثر ولا أقل.

الهدية؟

لم أفكر فيها بعد، لكنها ستكون شيئًا مني وشيئًا لي، شيئًا يكون بنسختين، ذكرى نراها في اللحظة ذاتها كلما أحببنا، سأهديها إليكِ أو سأهديكِ إليها، بعد أن تُهدي إليَّ نفسَك، أو تَهديَني نفسي إليك.

المكان؟

لا بد أن يكون به رائحة البحر، واللون الأزرق، وشيء من البني الهادئ، وصمتٌ مترقبٌ كأن المكان كله يتجلى احترامًا



لقدسيةِ شيءٍ ما، يحدث ها هنا، ولن يزعجنا النادل كثيرًا، سيكونَ بشوشًا متفهمًا أن أمرًا ما يحدث، وأنَّ للعينين حرمةً تجعلهما لا تركزان إلا في محرابٍ واحدٍ، تخشعان به وتصليان فيه.

الزمان؟

الأنسب أن يكون بين النهار والليل، بين الصباح والمساء، في يوم دافئ به لسعة برد، أو يومٍ باردٍ به نسمة دفء، بين سحابةً صيفٍ وشمس شتاء.

ثم؟

لا شيء. ربما سأسأل عينيك في نهاية اللقاء، باللحظة ذاتها التي سأتلقى فيها الجواب، قبل أن نقوم معًا، ويظل قلبانا قاعدين في المكان نفسه إلى أن نشيخ، يتعارفان أكثر، كأننا كل يومٍ، لا نزال معًا في المرة الأولى للقائنا.



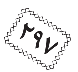
(٣١)

ثُم حين تأتين؛ لن أترك موضعًا سألتُ فيه: «أين أنت؟»، حتى أسير فيه ثانيةً لأعرِّفه بالواقفة جواري وأجيبه: «ها هي».

لن أدع مكانا بكيت فيه دونك، حتى أضحك فيه معك. لن أقطع الطرق الطويلة وحدي أعُدها، ولن أطيق بُعدك بَعدها، ولن أطيق بَعدك بُعدها.

حين تأتين، ستولد الحياة في صباري ليطرح زهرا، وسيسقط الشوك من جسمي المتعَب لتقف فوق جروحه الفراشات، وستتفتح عيناي بعدما ذبلتا، كحبتين من الماس الأسود في بحيرتين عذبتين، ثم سأطلق تنهيدة تشق من صدري كونا فسيحًا، أكبر من هذا الكون الكبير، لكنه.. لن يسع سوانا.





(٣٢)

حينها، سأحكي لكِ عن خيباتي كلها جملةً واحدةً، أقول فيها: «الآنَ يمكنني النسيان»؛ إذ إن محاولات التناسي بعد المآسي غالبا ما تبوء بالفشل؛ فقط يمكننا أن نتجاوز، لكن تظل الجراح كالبراكين الخامدة لا نعرف متى تثور، فنؤثر السلامة ونظل بعيدين عنها قدر الإمكان لنكون في أمان، لكنَّ بعدنا عنها لا يعني عدم وجودها.

إلى أن يأتي مَن يحملنا فوق جناحيه؛ لينقلنا من الجزيرة المهددة بالاشتعال إلى أراضي السلام، من كوكب الأرضِ إلى سماء الكواكب، من القارة إلى المجرة، من اليابسة إلى الحانية، من الذاكرة إلى الذكرى، من الماضي المظلم إلى النور الحاضر؛ كنبيٍّ بُعث في قوم ليس فيهم غيري، كرسولٍ رسالتُه الوحيدة أنا، كمسعفٍ مهمته مرافقتي إلى الأبد.

حينها، يمكنني النسيان؛ لأن السماء المثقَلة بالعتمة تضيء في حضن القمر.

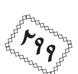


(٣٣)

كالعادة، حين تضيق بي نفسي التي أعرفها والأماكن التي أقصدها والشوارع الخاوية على عروشها؛ أفر إلى نفسك المجهولة لأشكو إليكِ بَثي وحزني؛ لأحمِّلك الخريف الطويل بداخلي، والهرم العجوز، والليل الأسود، والألوان الشاحبة، ووجهي الواجم، وأجنحتي المتكسرة.

لأقص عليكِ مواجعي، وأنني مهزوم؛ ولذا أريدكِ نصرًا، ولو للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، وأريدك قَصرًا، يأويني بعد سيرٍ طويل في الصحاري، وأريدك حصنا، بعد سقوط أبواب ممالكي وفرار جيشي، وأريدك حضنا، بعد كل الأبواب التي صُفقت بوجهي، وأريدك حياةً لأنني منذ عشرين سنةً أُحتَضَر.

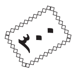
أريدك -يا أعزكِ الله- بَنانًا، يمسح من تحت عيني الدمع، وعينًا، تسكبَ فوق خدي الدمع، أريدك هواءً؛ لأن



صدري ضاق، وماءً؛ لأن حلقي جفَّ، وسماءً؛ لأنّ الأرضَ ليست مكانًا صالحًا للحب.

أريدك؛ لأنني تعبت من الحرب.





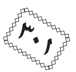
(٣٤)

سيدتي التي لم تأتِ بعد..

أخبرتك من قبل أنني أصلح للحب، واليوم أخبركِ أيضًا أن لديَّ القدرة على تضميد جراحك؛ ليس لأنني طبيب، وإنما لأنني جريح ضمد جراحه بلا قطنٍ، واقتلع مِن ساقيه طلقات الزمن بلا مخدر فصار خبيراً بالألم ويعرف كيف يروضه.

إنني أعلم أنكِ مثقلة بالخيبات مثلي تماما، وأنَّ فوق كتفيكِ أطنانًا مِنَ الغبار، وأنَّ قلبك القاني بهت لونه في الجسَم الذي يعاني، وأنَّ انحناءه الظهر من قسوة الدهر، وأن انتفاخ العينين من البحث في الظلام عن بصيص نور.

إنني أشعر، بما تخفينه وما تخافينه، وأسمع في صمتك ما يغني عن صوتك، وأرى في وجهك القصةَ الكاملة، ينقصها السطر الأخير، والذي يكون فيه كلٌّ واحدٍ منا لصاحبه كالسكون على آخر حرف، بعد تعارك الحركات في جملةٍ طويلة.



فها أنا ذا، جئتُ إليكِ؛ لأسكن على يسار الصفحة الأخيرة والتي نقول فيها:





تم بحمد الله.